الديوان الثامن

والآن... ماذا نصنع؟
يا أمم الشرق..

بس چه باید کرد ای اقوام مشرق

نقله إلى العربية
الأستاذ أحمد الغازي

صاغه بالعربية شعرًا
الشيخ صاوي شعلان المصري

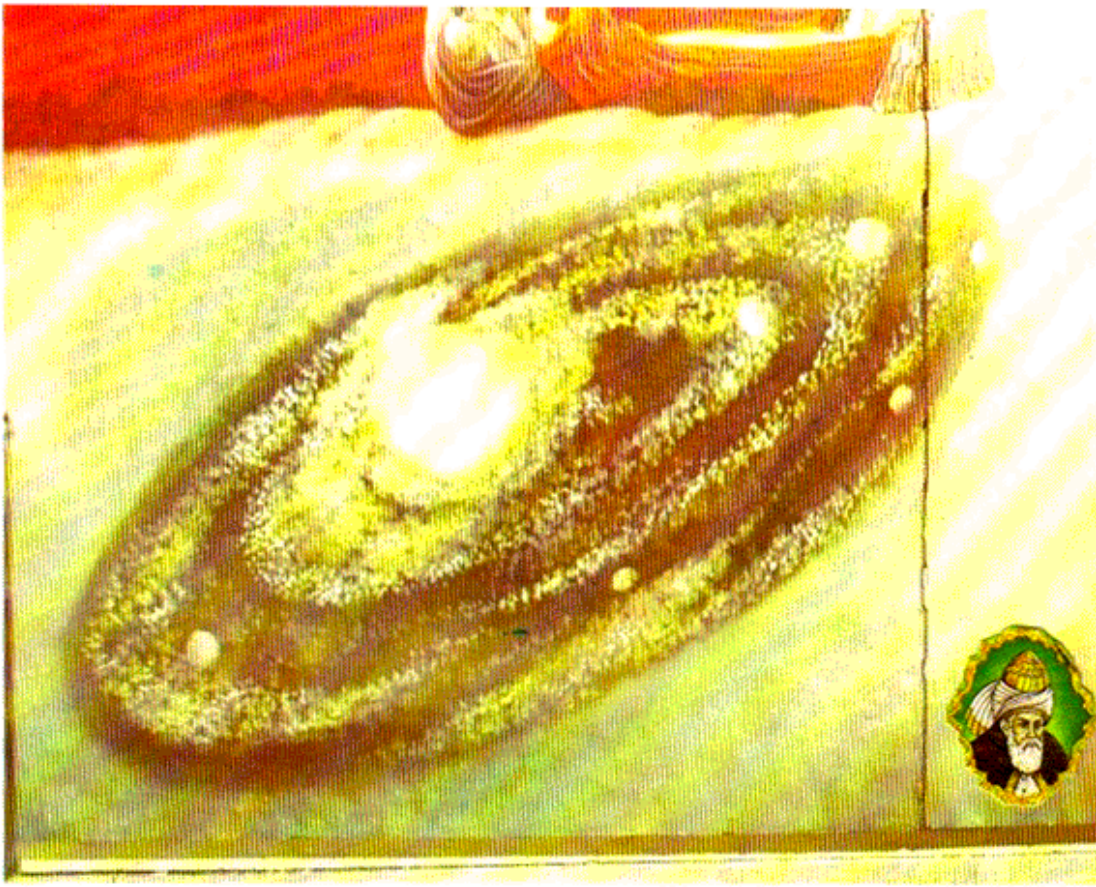

آدمی اندر جہانِ ہفت رنگ　　ہر زماں گرمِ فغاں مانندِ چنگ!

یہ جہانِ بے کراں یہ کائناتِ سات رنگ　　آدمی ہر دم یہاں گرمِ فغاں ہے مثلِ چنگ

أصدر محمد إقبال هذا الديوان في آخر حياته باللغة الفارسيَّة ، صَاغَه على وزنٍ مثنويٍّ مولانا جلال الدِّين الرُّومي من بحر الرَّمل المسدس ، وهذا مجموعة قيمة جميلة من شعره ، نشرها في سنة ١٩٣٦م ، بعد أن استولت إيطاليا على الحبشة ، مع أن مثنويات هذا الكتاب موجزة تحتوي على صحائف محدودة ، ولكنها مليئة بأمواج فكره العالي ، تتلاطم فيها بحار فلسفته البديعة التي اقتبسها من الكتاب والسنة وآثار العلماء .

وإذا أمعنَّا النظرَ في هذا الديوان تبيَّن لنا أنَّ مزاياه تفوق جميع دواوينه الأخرى لما يحويه من حالة ممتازة من النشاط والجذب والإخلاص والعشق ، تقطر من كلِّ بيتٍ فيه قطراتُ الشَّوق والحبِّ والاضطراب الرُّوحي ، كما نلاحظ ذلك في مثنوي مولانا جلال الدِّين الرُّومي .

قد تناول محمد إقبال في هذا الديوان بعض الموضوعات الهامَّة ، نشير إليها باختصار :

الموضوع الأول من هذه الموضوعات الهامَّة التي عني بها شاعرنا العظيم في دواوينه بعامةٍ وفي هذا الديوان بخاصةٍ ، موضوع نهضة الشَّرق ، يقول : إنَّ الشرق هو الذي هدى الغرب إلى التقدم والرُّقيِّ العالي ، وإلّا فلقد كان أهل الغرب متخلِّفين عنَّا في كلِّ ناحية من نواحي المدنية والحضارة ، وحين كانت أوربة غارقةً في لجَّةٍ من التعصُّب ، والجهل ، والحروب الدَّاخلية الدَّامية ، كنا ـ أهل الشرق ـ في أرقى منزلةٍ من منازل العلم ، والفنِّ ، والمدنيَّة ، والحضارة . وهذا هو الشرق الذي هذَّب الأمم الغربية بمختلف الفنون ، والعلوم ، والكيمياء ، والطبِّ وغيرها .

والموضوع الثاني في هذا الديوان هو تطهير الفكر وتجديده ، يقول : « **إذا أمكن تطهير الفكر في أمَّةٍ استطاعت أن تنهض ، وتخطو إلى المجد قدماً ، ولو**

أمعنَّا النظر في سيرة الرسول ﷺ العطرة علمنا أنَّه بدأ تربية الأمة بتطهير الفكر ، ثم استطاع بعد ذلك أن يقيم بناء التعمير » .

فيريد شاعرنا العظيم أن نركز أولًا على إصلاح الفكر ، فبإصلاحه يصلح الإحساس ، وتستقيم العواطف .

وبعد ذلك أجلُّ ما عني به محمد إقبال في هذا الديوان هو موضوع فقر المؤمن ، ويتبادر إلينا في المعنى اللغوي أنَّه يعني فراغ اليدِ من الأموال ، ولكن صوت الحقيقة يدوِّي في كيان الحقيقة كلِّها ، بأنَّ كل موجود فقير إلى الله ، فقير إلى إدراك ما لا يعرفه ومعرفة ما لا يعلمه ، فقير إلى محبة الأصدقاء ومعاونة العشراء .

وقد اصطلحت الصُّوفية على أن الفقر يعني : إخلاص العمل لله ، وتخصيص الاحتياج إلى الله وحده ، والاستغناء به عمَّا سواه ، وقد التبس الأمر على بعض الناس لما بين هذه الصورة من التشابه ، وظنَّ البعض أنَّ فقر الصُّوفيَّة هو بعينه الفقر اللغوي .

ويقول محمد إقبال : **إنَّ الفقر قد يعني ترك الدُّنيا ، ولكن ذلك لا يعني الإهمال ، والعزوف ، والزُّهد الغالي ، وإنَّما يعني تسخير الدنيا أولًا ، ثم العزَّة ، والعفَّة ، والاستغناء ، كما سخَّرها أجدادنا ، واستفادوا من نعمها ، لكنَّهم لم ينغمسوا في قعرها انغماس الماديين وأهل الهوى .**

وليس من شأن المسلم أنْ تستعبده مادةُ الحياة الدنيا وحطامها ؛ لأنه أرفعُ قدراً ، وأعزُّ مكاناً ، وأنبلُ هدفاً لأنَّه له خلافةُ الأرض ، فالمؤمنُ الفقير ـ المؤمن الكامل ـ هو الذي يُزلزلُ بعزيمته هذه الكرة المسكونة ببرِّها وبحرها ، والفقر النَّبيلُ العفيفُ هو احتقار زهو الدُّنيا ، ودواعي الغرور فيها ، وإلى ذلك يُشير محمد إقبال في موضوع فقر المؤمن في هذا الديوان .

وقد كتب محمد إقبال هذا الديوان باللُّغة الفارسيَّة ، فنقله منها الأستاذ أحمد غازي إلى العربيَّة نثراً ، فصاغه الشاعر الإسلاميُّ المعروف الشيخ صاوي شعلان المصري شعراً بالعربيَّة ، وهو الآن بين أيديكم .

* * *

التمهيد

ذكر الشاعر في هذه الأبيات حبَّه لمرشده الرُّوحي مولانا جلال الدين الرُّومي ، مجدِّد التصوُّف وإمام الرُّوحانية في عصره ، ثمَّ يُلقي الضوء على المكانة العالية التي يحتلُّها الرُّوميُّ في نظر الشاعر .

ويركِّزُ في الأبيات الأخيرة على أهمية الصراع بين الحق والباطل ، وكلُّ ذلك على لسان مرشده وأستاذه الرُّومي ، يقول :

كنْ مثل إبراهيم في الإيمان ... حتى تزيلَ معابدَ الأوثان
الشَّعبُ يبني عزَّه بكفاحه ... ليشيد مجداً ثابتَ الأركان
ولقد يُظنُّ به الجنون إذا بدا ... يوماً تمردُهُ على الطُّغيان
ما فوقَ أرضِ الله شعبٌ ظافرٌ ... ببلوغِ آمالٍ ونيلِ أماني
إلَّا إذا عقل الجنون وإنَّما ... يحلو جنونُ الحبِّ للأوطان
المؤمنُ المقدامُ يمضي قاهراً ... بالعزِّ والإقدامِ دون توانِ
وإذا ارتضى للذلِّ أمسى كافراً ... باللهِ أو بكرامةِ الأوطان
من كانَ يدري فَرْقَ ما ينتابه ... في دَهْرِهِ مِنْ عزَّةٍ وَهَوان
وبأنَّ الاستعمارَ أسرعُ بالرَّدى ... للناسِ في الدُّنيا من الحَدَثان
وبأنَّ للأحرارِ بعد فنائهم ... عمراً على الأيام ليس بفاني
وهناكَ يَرْفَعُ سهمَهُ نحو العلا ... ويقيمُ رايته على كيوان
شُمُّ الجبالِ تذوب في خطواتها ... حتى تفوقَ الماءَ في الجريان
كم ثورةٍ للمَجْدِ طيُّ ثيابه ... كالنَّار تَقْذِفُ ثورة البركان
لا يتركُ الدُّنيا تعيشُ وشعبهُ ... فيها قتيلُ الذلِّ والحِرْمان
العِطْرُ مستترٌ ويسري ظاهراً ... كنْ أنت مِثْل العِطْرِ في البُستان
لا تخدعنَّك في الرُّبى ألوانها ... كنْ خالياً فيها من الألوانِ

قد ضلَّ أهلُ القصر عن أرواحهم ... لم يهتدوا إلَّا إلى الأبدان
فالدِّين إرضاءُ الدَّخيل وليس ... مرضاةَ الإلٰه الواحدِ الدَّيَّان
فقلوبُهم وجيوبُهم وعقولُهم ... للأجنبيِّ تقرُّبٌ وتفانِ
لا تصحبنْ في شرْبِ كاسات المنى ... إلَّا وفياً صادقَ الوِجْدان
لا ترجُ في نُدَماء غدرٍ نشوةً ... ولو أنَّ فيهم قيصرَ الرُّومان
لا تُفش للأنعامِ أسرارَ الأسو ... دِ ولا حديثَ الصَّقْرِ للغِرْبان
مَنْ شابَ في نسجِ الحصيرِ فما له ... يوماً إلى نسجِ الحرير يَدَان
والذِّئبُ يأكلُ يوسفاً خيرٌ له ... من أن يُبَاع لتاجرِ العُبْدانِ
مرشدُ الأرواح مولانا جلال[1] ... شيخُنا الروميُّ علويُّ المِثال
مشرقُ الإيمانِ قدسيُّ الضَّمير ... وهو في قافلةِ العِشْقِ أمير
قد علا منزلةَ الشمس مَقَاما ... ضارباً في مسبح النَّجْم خِياما
قلبُه في مُحْكَمِ الذِّكرِ صفا ... بهدىٰ القرآنِ أضحى مُصْحفا
لو رأىٰ مرآتَه بين الملا ... جام (جمشيد) توارى خَجَلا
رَأْيُه المرسلُ بالعِشْق نَدَاه ... أشْعَل الثورةَ في قلبي صداه
قالَ شيئاً سَمِعَتْه فطرتي ... وَتَجَلَّى نغماً في فكرتي
أممُ الدُّنيا صَحَتْ بعد سبات ... واستبانت كُنْهَ أسرارِ الحياة
وأفاقَ الشَّرْق من نومٍ طويل ... يكسرُ الأغلال والقَيْدَ الثقيل
جَذْبَةٌ واتته مِنْ دَفْعِ القَدَر ... فأزاحَ العِبْءَ عنه وانْتصر
أممُ الغرب تبينتَ مداها ... ما اكتوى مِثْلُك حيٌّ بلظاها
كُنْ كإبراهيمَ سُكْراً وَهُياما ... لتصير النَّارُ برداً وسَلاما
اجْعَلِ الأصنامَ في الأرض هشيما ... لا تغادرْ هيكلاً منها قديما
مِنْ ضميرِ الشَّعب من إيمانه ... تنبتُ الثورة في وِجْدانه
هي نورٌ يجتليه المُصْلحونا ... قاصرُ العَقْل يسمِّيها جنونا

---

(١) قد سبقت ترجمته .

إنَّ قـومـاً للهـوى يستسلمـون ... لـم يَقُـمْ فيهـم جنـونٌ ذو فنـون
لـن يقيمـوا نهضـةً تمحـو الهـوان ... مـا لهـم فـي سـاحـة المَجْـدِ مكـان
كـلُّ مَـنْ تحـتَ الفضـاءِ الأزرقِ ... لـمْ يُجَـاهـدْ فكـأنْ لـم يُخْلَـقِ
ثقـةُ المـؤمـنِ بـاللهِ عَتـادْ ... فتـوكَّـل واعتـزمِ نَحْـوَ المُـراد
شيمـةُ المـؤمـن عـزمٌ وثقـة ... حيثمـا هـمَّ بـأمـر حقَّقـه
بهمـا يَسْمُـو ويمضـي قـاهـرا ... لا أرى اليـائـسَ إلَّا كـافـرا
نظـرةُ المـؤمـنِ مصبـاحٌ منيـر ... فهـو بـالخيـرِ وبـالشـرِّ بَصيـر
عـزمُـه الوثَّـابُ لا يخشى الصعـابا ... تـاركـاً مـا عمَّـر الظلـمُ خـرابـا
حـوَّلـت ضـربتُـه صُـمَّ الصَّفـا ... والجبـالَ الشُّـمَّ قـاعـاً صَفْصَفـا
يـدركُ الآمـالَ بـالفقـر الغَيُـور ... وهـو لـلأجيـالِ بعـثٌ ونُشـور
ومضـى عـازفُ نـاي العـاشقيـن ... يُـرْسـلُ الإلهـام والقـوْلَ الـرَّصيـن
حيـن أدْرَكْـتَ المُنـى فـي صحبتـي ... ثمـلاً مـن خمـرهـا فـي حـانتـي
حـال فـي نشـوتـك العـزمُ الصَّميـم ... لـم تَعُـدْ تحفـلُ بـالـوَهْـم القـديـم
كُـنْ مـن الـرَّوض قـريبـاً نـائيـا ... كـالشَّـذا يسـري خفيـاً بـاديـا
بيـن ألـوان الـرَّوابـي واعيـا ... ومـن الألـوان[1] طـرّاً خـاليـا
كـن مـع الكـل علـى هَـدْي الإلَـه ... وبـدونِ الكـلِّ لا تـرجـو سِـواه
قـوةُ الـرُّوح هـي السِّحـرُ العُجـاب ... أهلُ هذا العصر عنها في احتجاب
فلـديهـم حـبُّ غيـرِ الله ديـن ... ولغيـرِ الله ذَلُّـوا صـاغِـريـن
ذلـكَ السـرُّ وهـذي المعـرفـة ... فيهمـا حيـرةُ أهـلِ الفلسفـة
مُنْذُ بدءِ الخلقِ في ماضي السنينا ... لـم يجـاوِزْ فكـرُهـم مـاءً وطينـا
حُـرِمَـتْ أعينهـم نـورَ القلـوب ... ومعيـنُ العِشْـقِ منهـم فـي نُضُـوب
لـم يـروا فـي الكـون إلَّا مَنْظـرا ... أزرقـاً أو أحمـراً أو أصفـرا
وإذا الأبصـارُ لـم تُـدرك هُـداهـا ... من سراج القلب ضلَّت في ضحاها

---

(١) المذهب .

فـاز حـرٌّ جَعَـلَ الحـقَّ مصيـره ... لـم يبـعْ يـومـاً لمخلـوقٍ ضميـره
مـــنْ وفـــى لله روحـــاً ودَمَـــا ... صـانَ عَـنْ قَيْـدِ سِـواه القَـدَمـا
إنَّ سـرَّ الأُسْـدِ فـي حِضْـنِ الأجـم ... لا تعيـه فـي مـراعيهـا النَّعَـم
ليـس كـلُّ الخلـق أهـلاً للعهـود ... لا تَبُـحْ بـالسـرِّ إلَّا لـلأسـود
إنْ تعـاطيتَ مـع الصَّحْـبِ المُـداما ... أبْعـدِ السَّفَلَـةَ عـن حَقْـلِ النَّـدامى
هَبْـهُ كسـرى هَبْـهُ أيضـاً قَيْصـرا ... لَـنْ تـرى فيـه النَّـديـمَ الخَيِّـرا
لـو غـدا يـوسُفنـا يـومـاً طعـامـا ... فـي فـم الـذِّئـب وأفنـاه التهـامـا
فهـو خيـرٌ مـن خسيـس يحتـويـه ... وَبِبَخْـس المـالِ يـومـاً يشتـريـه
أهـلُ دنيـانـا تمـادوا فـي غـرور ... لـم يبـالـوا بمقـاييـس الأمـور
بَهَـرَتْنـي نكتـةٌ مِـنْ شـاعـرِ ... بـارعِ الفكـرِ نقـيِّ الخـاطـرِ
ذاتُ معنـــى نـــورُه مُـــؤْتَلِـــق ... كـــادتِ الـــرُّوحُ بـــه تَحْتَـــرق
إنَّـه العـاشـقُ فـي أهـل الجحـود ... لـم تَـزِدْ أسمـاعُهـم غَيْـرَ الجمـود
فَهْـوَ يَحْكـي مسلمـاً بـاتَ يُعـانـي ... فـي قـرى الإفـرنـج تـرديـدَ الأذان
قـلْ لأهـل الحـقِّ مـا يشفـي القلـوب ... قُـلْ عـن الـدِّيـن وأنبـاءِ الشُّعـوب
اقبـل الهـمَّ ولا تـأكـلْ طعـامـا ... مـنْ يَـدٍ تُطْعِمُـك الهَـمَّ دوامـا
إنْ يكـنْ عيشُـك مِـنْ طـولِ الكَـدَرْ ... فيـه مـرُّ الجـوعِ فـالـذُّلُّ أمـرْ
الـــدواءُ المُـــرُّ للعقـــلِ الكبيـــر ... فـاتـركِ الحلـواءَ للطفـلِ الغَـرِيْـر
خِـرْقـةُ الـزَّاهـد عـبءٌ للفقيـر ... كُـنْ عفيـفَ القلـب وانْعَـمْ بـاليَسير
واسألِ الأنْسَام في الرَّوض النضير ... مـا الـذي تَحْمِلُـه غَيْـرَ العَبيـر
إنْ تكُـنْ بحـراً قـويـاً غـامـرا ... فـاجعـلِ الصَّحـراءَ سيـلاً هـادِرا
أو تكـن طَـلاًّ فعـش بَيْـنَ الـورود ... وابْعَثِ العِطْرَ سلاماً في الوُجود
أنـتَ فـي الحـربِ نشيـدٌ مـن دمـاء ... أنـتَ فـي السِّلْـمِ رسـولٌ لـلإخـاء
إنَّ أهـل الحـقِّ أربـابُ الـوفـاء ... ليـس سِـرُّ الحـقِّ عنهـم فـي خَفَـاء
نـذروا أنفسَهـم فـي كـلِّ حيـن ... ليعـمَّ الخيـرُ كـلَّ العـالميـن
وتـأمَّـلْ قطـرةَ الطـلِّ النَّـدي ... مِـنْ دجـى الليـلِ إلـى فجـرِ الغَـدِ

حَفِظَتْ في الكون ذاتِيَّتَها ... ثم حلَّت في الدُّجى عُقْدتها
وبنى عُنْصُرَها شوقُ الحياه ... واستقرَّتْ حيثُ أحياها الإلَه
ومَضَتْ تجتازُ في صَمْتِ الفضاء ... خلوةُ الأفلاكِ في جوِّ السماء
جانبتْ أنْ تَجْعَل البَحْرَ الهدف ... لم تُرِدْ أنْ تتوارى في الصَّدَف
بل أقامتْ بين أحضانِ السَّحر ... لَمْحةٌ كانت حياةً للزَّهر
فَتَحَ الوردُ بها أجفانَه ... وسقى مِنْ عِطْرِه أغصانَه
هكذا المؤمنُ رمزُ التَّضحيات ... يتفانى في اقتناء الباقيات

***

مناجاة الشَّمْس

جرَتْ في حياةِ الشُّعراء سنةٌ أدبيَّة سلكها الكثيرون منهم في مخاطبة الشَّمس ، ولعلَّ أقرب مثال إلينا في الجديد قصيدة أحمد شوقي (قفي يا أخت يوشع خبرينا) فالشُّعراء خاطبوا الشمسَ ، وتحدَّثوا عنها ، وتفنَّنوا في ذلك ، وأبدعوا ، وها نحن نرى إقبال يُخاطبها قائلاً :

يا مبعثَ الإشراقِ والنُّور الذي ... عمَّ البريَّة منْ ضياءِ الباري
في كلِّ موجودٍ ضميرٌ مشرقٌ ... منْ ضوئكِ الفيَّاض كلَّ نَهَارِ
مِنْكِ الحرارةُ للحياةِ وبعثُها ... ونضالُها في موجها المـوَّار
أوْدَعْتِ كلَّ مُحَجَّبٍ شَوْقَ الظُّهو ... ر على هدىً منْ حكمةِ الأقْدَار
كَيَدِ الكليمِ أرى جلالَكِ سابحاً ... في موكبٍ مُتَجدِّدِ الأسفارِ
يطوي المَسِيْرَ على جَدَاوِلَ فِضَّةٍ ... في زورقٍ من عَسْجدٍ ونُضَارِ
أرسلتِ بدرَ التَّمِّ بعدكِ في الدُّجى[1] ... يجلو محاسنَه على الأنظار
أهديتِ للياقوتِ وَمْضَ بريقهِ ... ولعلّ بينَ بواطنِ الأحْجَار

---

(١) الدُّجى : سواد الليل وظلمته .

وسكبتِ في قَلْبِ الشَّقيقِ حرارةً ... صَبَغَتْ ملابِسَه بلونِ النَّارِ
بعروقه تجري الدِّماء وقد غدا ... يختالُ بين عرائسِ النُّوَّارِ
والنَّرْجِسُ[1] الغَضُّ استفاقَ من الكرى ... وأزاحَ عن جَفْنيهِ ألفَ سِتَار
لينالَ من هذا الشُّعاع نصيبَه ... بين الغصونِ الخُضْرِ والأشْجارِ
مَرْحىٰ لقد وافىٰ قدومُكِ بالسَّنا ... وسما بطلعةِ وجهِكِ استبصاري
حتى تجلَّى نخلُ سينا ماثلاً ... في كلِّ ما في الأرضِ من أشجار
أنت الصباح المرتجى لكنَّني ... ظلُّ المساء الغاربِ المُتواري
فهبي لِوِجْداني سراجاً مشرقاً ... يهدي خُطايَ إلى علا وفخار
وَلْيَسِرْ ضوءُك في ترابي شعلةً ... تصفو بها نفسي منَ الأكدار
وصلي حياتي واجعلي هذا السَّنَا ... منْ حولها ستراً من الأنوار
لأنِيْلَ فِكْرَ الشَّرق أوضاحَ الهُدى ... كيما يُبَدِّلَ لَيْلَهُ بنهار
وأثيرُ ناراً في الصُّدورِ جديدةً ... مشبوبةً بعزائمِ الأحْرَار
إني سَأُسْمِعُهم نشيدَ المجد من ... قيثارةٍ أوتارُها أشعاري
وأحيلُ خام الطَّبع وعياً صارخاً ... متحفِّزاً للسَّبْق في المِضْمار
وأصوغُ للأيَّام دوراً مقبلاً ... غَيْرَ الذي شَهِدَتْ من الأدوار
ليحرِّروا الأرواحَ والأفهامَ من ... لغوِ الفِرَنْجِ وزيفِ الاستعمار
لا يستقي نبضُ الحياةِ حرارةً ... إلَّا بذكرِ مُقَدِّرِ الأقدار
ومجالُ تحريرِ النُّفوسِ أمانةٌ ... موصولةٌ بنزاهةِ الأفكار
والشَّعْبُ حِيْنَ يَضِلُّ في آماله ... عَنْ قَصْدِه لم يَلْقَ غَيْرَ بَوَار[2]
وتحُولُ فضَّتُه النقيةُ بهرجاً ... منْ ذا يسوِّي بهرجاً بِنُضَار
ويموتُ داخلَ صَدْرِه القلبُ السَّليم ... وينطوي في ذلَّةٍ وصَغَار

---

(١) النَّرجس : نبت من الرياحين ، وهو من الفصيلة النرجسية ، ومنه أنواع تزرع لجمال زهرها ، وطيب رائحته ، وزهرته تشبَّه بها الأعين .

(٢) بَوَار ، أي : هلاك .

حتَّى ترى المُعْوَجَّ في نَظراتِه ... يبدو سليماً عاليَ المِقْدار
وإذا رأى في الكائناتِ صِرَاعها ... طَلَبَ الشَّواطىءَ خَشْيَةَ الإعصارِ
فإذا الحياةُ هي السَّلامةُ والسُّكو ... نُ وفوزه مِنْ حربها بِفِرار
في بَحْرِه موجُ الأماني راسبٌ ... ما فيهِ مِنْ لُجٍّ ولا تيَّار
الخطوةُ الأولى لِنَهْضَةِ أمَّةٍ ... تحريرُها بالعَزْمِ والإصْرار
لو أمكنَ التَّطهيرُ أمكنَ بعدَه ... أنْ يَسْهُلَ التَّعْميرُ للأفكار

***

حكمة الكليم ـ سياسةُ الأنبياء

استخدم إقبال كثيراً من مصطلحاته الخاصَّة ، فوجَّه منها سهاماً نافذةً إلى صدر الاستعمار ، وهو هنا في هذه الأبيات يرقى على معراج الفكر إلى تفهُّم جلال النبوَّة ، ثم يعرض صفات المؤمن الصَّادق ليشحذَ من عزيمته وينفخَ فيه روح التحرُّر ، ويوقظَ في فطرته معاني القوَّة ، فما كان يستسلم لطغيان طاغيةٍ ، وجبروتِ جبارٍ ، وإنما تكون خشيته من الله وحده والتجاؤه إليه دون سواه ، فنراه يتَّخذُ من صفات النَّبيِّ أسلحةً للأمم العزلاء لتناضل بها ، وتذودَ عن حياضها ، وتدفع العدوَّ عن حماها :

عندما يَصْدَعُ النبيُّ بأمرِ الله جهراً في مَسْمَعِ الأكوان
يتحدَّى بوحيه كلَّ حُكْمٍ لأميرٍ في الأرض أو سُلطان
لا يرى قَصْرَه سِوى رَسْمَ ديرٍ من بقايا هياكلِ الأوثان
لا يَسِيْغُ المَقَام في مَوْطنِ الذُّلِّ ولا يَرْتضي بِعَيْشِ الهَوان
تَتَذَكَّىٰ بنورِ صحبته النَّفْسُ ويهدي الرَّشَادَ للحيران
يُحْدِثُ الضَّجَّةَ الرَّهيبة في الأيام حتى تَسِيْر طَوْعَ الأماني
مُعْلناً في الوجود لا ربَّ غَيْرَ الله يُخْشَىٰ ويُرْتَجى كلَّ آنِ
كَيْفَ يرضىٰ إذلالَ عَبْدٍ لِعَبْدٍ وامتهانَ الإنسانِ للإنسانِ

قطـــرةٌ مـــنْ نَـــداه تُشْعِـــلُ نـــاراً فـــي عـــروقِ الكُـــروم والأغْصَـــان
ويُجَلِّـــي فـــي قبضـــةٍ مـــن تـــراتٍ بَعْـــثَ روحِ اليقيـــن والإيمـــان
حـــارسُ الفطـــرة التـــي فَطَـــرَ اللهُ عليهـــا الأرواحَ فـــي الأبـــدان
لا يســـامـــي جـــلالُ حكمتـــه العقـــلَ ولا عبقـــريـــةَ الفَنَّـــان
حكمـــةٌ فـــي غنـــى عـــن الحَشْـــدِ والجَمْـــعِ وزهـــورِ العُـــروش والتِّيجـــان
مِـــنْ جُمُـــودِ الشِّتـــاءِ يحيـــي ربيعـــاً بـــاســـمَ الـــرَّوْضِ نـــاضِـــرَ الأفنـــان
وتُمـــالُ الـــرَّاحِ المُعَتَّـــقُ أشهـــى مـــنْ رَحِيْـــقٍ مُصَفَّـــقٍ فـــي الـــدِّنـــان[1]
ابتهـــالاتُ صُبْحِـــهِ تـــوقـــظُ الكـــونَ فيصحـــو مـــنْ ليلـــه الـــوَسْنـــان[2]
ولـــه نظـــرةٌ مـــن الحـــقِّ فيهـــا نبـــأٌ يُعْلـــنُ انقـــلاب الـــزَّمـــان
ولـــديـــه وثيقـــةُ الأمـــنِ ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ فـــي مُحْكـــمِ القُـــرآن
وَحْيُـــه يَعْمُـــرُ الصُّـــدورَ الخـــوالـــي بقلـــوبٍ جـــديـــدةِ الإيمـــان
دَرْسُـــهُ العَـــزْمُ والـــرِّضـــا المحـــضُ والتَّسليـــمُ منـــه فـــي السِّـــرِّ والإعـــلان
كســـراجٍ يشـــقُّ قلـــبَ الـــدَّيـــاجِيْـــرِ[3] بـــاهـــرَ الضَّـــوْءِ ســـاطـــعَ البُـــرْهَـــان
قـــدرةٌ حـــارتِ النَّـــواظِـــرُ فيهـــا أيُّ ســـرٍّ بهـــا خفـــيّ المعـــانـــي
يَصْبُـــغُ الـــرُّوحَ فـــي الجُســـوم بلـــونٍ غَيْـــرَ كـــلِّ الـــرُّســـومِ والألـــوان
حَـــوَلَـــتْ كيميـــاؤه الصَّـــدَفَ البـــالـــي عِقْـــداً مـــن الـــدَّراري الحِسَـــان
يتـــولَّـــى مـــلءَ الفـــراغ بحـــزمٍ يَقْهَـــرُ المستحيـــلَ بـــالإمكـــان
وينـــادي العَبْـــدَ المُصَفَّـــدَ[4] هيَّـــا لا تحـــاكُ القيـــودُ لـــلإنســـان
فـــإلـــى المَحْـــوِ والبِلـــى كـــلُّ معبـــودٍ قـــديـــمٍ مَـــعَ الحُطـــامِ الفـــانـــي
مَـــنْ يُحـــارِبْ وسيفُـــه رَبِّـــيَ الأعلـــى يُـــدمِّـــرْ قـــواعـــدَ الأوثـــان

---

(١) الدِّنان : وهي جِرَار الخمر .
(٢) الوَسنانُ : النائم الذي ليس بمستغرق في نومه .
(٣) الدَّياجير : واحدها الدَّيجور، وهو الظلمة، وصفوا به فقالوا: ليل ديجور، وليلة ديجور.
(٤) المصفَّد ، أي : المشدود .

إنْ أردْتَ الفَقْـرَ الغيـور فـلا تَفْقِـدْ مـعَ العُـدْمِ ثَـرْوةَ الإيمـانِ
فَمِـنَ الحـالِ لا مـنَ الجَـاهِ والمَـالِ دوامُ الـرِّضـا والاطْمِئْنَـان
رأسُ مـالِ الأحْـرارِ صـدْقٌ وإخلاصٌ وَوَجْـدٌ وَحُـرْقَـةٌ وتَفانِ
لَيْسَ فـي الحَلْـيِ والمَظـاهـرِ والثَّـوْبِ المـوشَّـىٰ والأصفـرِ الـرَّنَّـان
لا تحـاولْ درْكَ المعـالـي بكـاووسَ وخسـرو فـي غـابـرِ الأزمـان
طُـفْ إذا شئـتَ حَـوْلَ ذاتٍ : حـرَّاً لا تَطُـفْ بـالسَّـريـرِ والإيـوان
قَـدْ تبـاعَـدْتَ عـن مَقـامِـك حتَّـى صِـرْتَ فـي ذِلَّـةِ الأسيـر العَـانـي
لا تَسِـرْ واهـنَ الخُطـى كبغـاثِ الطيـر بيـن الطُّلـولِ والجُـدْران
كُـنْ نَظِيْـرَ الشَّـاهيـن فـي القِمَـمِ الشَّمَّـاءِ لا فـي مَسَـارِبِ الـوُدْيَـان
تتحـرَّى الطيـورُ عِنْـدَ بنـاء العُـشِّ أعلـى الفـروعِ فـي البُسْتـان
لَسْـتَ دونَ النُّسـور بـأساً فحـاولْ دارةَ النَّجْـم أو ذُرى كِيـوان
مِـنْ مِهـادِ الثَّـرى إلـى التِّسْعـةِ الأفـلاكِ فَـوْقَ الـزَّمـان فَـوْقَ المَكَـان
غَيِّـرِ العـالـمَ القـديـمَ وعَمِّـر فيـه دُنيـا جـديـدةَ البُنْيـان
والـذي يَنْشُـد الجِهـاد فنـاءً في رضا الحقِّ وهو ماضي الجَنانِ
هـو سـرُّ الأقـدارِ وهـو قضـاءُ الحـقِّ فـي المُمْكنـاتِ والإمكـانِ
فَتمثَّـلْ نضـالَ أسـلافِـك الأمجـادِ نَحْـوَ العُلـى بغيـرِ تَـوَانـي
وتَـدَبَّـرْ كيـف استهـانـوا بِبَـذْلِ الـرُّوح والمـالِ فـي رضـا الـرَّحمـن
أظْهـرِ الجَـوْهَـرَ الكـريـمَ مِـنَ الأصـداف واجْعَلْـهُ بـاديـاً لِلْعيَـان
وتَحَـرَّرْ مـنْ هيكـل المـاءِ والطِّيـن وَمِـنْ ظُلمـةِ الهـوى والهَـوان
واجعـلِ الفطـرةَ النقيَّـة نبـراسـاً لعينيـكَ بَيْـنَ قـاصٍ ودان
كـلُّ مـنْ ضـاعَ حظُّـه مـنْ جـلالِ الحـقِّ بَيْـنَ الجُحـودِ والنِّسيـان
لَـم ينَـلْ طُـوْلَ عُمْـرِه مـنْ جمـالِ الحـقِّ غَيْـرَ الإبعـادِ والحِـرْمـان
مبـدأ العِشْـقِ والصَّبـابـة قَهْـرٌ وخطـوبٌ مـوصـولـةُ الأشجـان[1]

---

(١) الأشجان : الهموم والأحزان .

وهـو مـنْ بعـدهـا دلالٌ وتيـهٌ بيـن طيـبِ المُنـى وَصَفْـوِ الأمـانـي
ويعـودُ المحـبُّ بـالقُـرْبِ محبـوبـاً وَيَنْسـى لـواعـجَ الهِجْـران[1]
الـوجـودُ الأسمـىٰ هـو المـؤمـنُ الحـرُّ الأبـيُّ الـوفـيُّ فـي كـلِّ آنِ
وبقـايـا الـوجـودِ فيمـا سِـوَاهُ مَظْهـرٌ حـائـلٌ وظـلٌّ فـانِ
حِيْـنَ يَـدْعُـو أنْ لا إلَـه سـوى الله القـديـرِ المهيمـنِ الـدَّيَّـان[2]
يُـذْعـنُ الكَـوْنُ والمكـانُ ولا يُشْـرِقُ إلَّا بفـوزِه القَمَـرانِ

* * *

حكمة فرعون أو سياسة الطغاة

إنَّ إقبالًا قال في هذه الأبيات والتي قبلها ما يكون في حياة الناس من إقامة العدل بينهم أو من الجور عليهم في الحكم ، وقد استخدم كلمة (الحكمة) لهذا العنوان ، (حكمة الكليم) ثمَّ (حكمة فرعون) ، وهو إنّما يُريد بياناً لسياسة الحكم في إطارٍ من مصطلحاته الخاصة قصداً إلى بيان دسائس الاستعمار وتدميره لحياة الإنسان والقضاء على حرّيته ، وهو في هذه الأبيات يقول :

قـدمـتُ حكمـةَ النَّبـيِّ لِلْعِيَـانِ والمكـرُ والخـداعُ حِكْمـةُ الطُّغـاةِ
تبقـي على الإنسـان جِسْمَ الحيـوانِ وَتَسْلُـبُ الـروحَ كـرامـة الحيـاة

* * *

حِكْمتُهـا حـريـةٌ مـارقـةٌ[3] تَعِيشُ في الدُّنيا بها منْ غَيْرِ دينِ
والنَّفـس فـي أوهـامهـا شـاردةٌ لمْ تَعْرِفِ الشَّوْقَ إلى عينِ اليقين

* * *

---

(١) الهِجْرانُ : هو الترك أو الإعراض عن شيء .
(٢) الدَّيَّان : هو اسم منّ أسماء الله عزَّ وجلَّ .
(٣) مارقة : خارجة عن دينها .

سائلُ التهذيبِ مِنْ هذا النظام سلاسلُ الأسرى وأغلالُ العبيد
ـا يرى السَّيِّدُ ينقادُ الغُلام فلا يرى ولا يعي ولا يُريد

* * *

لكَ البارعُ في مهنته يَصْطَنِعُ التَّجْديدَ في الدِّين القويم
ـذْ شطرَ الوَحْدَةَ في أمَّتِه فما له ندٌّ سوى عَصَا الكليم

* * *

ـى يفيقُ القومُ من وَهْدَتهمْ وَهُمْ لحكم الغَيْرِ زَرْعٌ وَحَصَاد
ـذْ هدموا بناءَ ذاتيَّتِهِمْ وغيرُهم في أرْضِهِمْ سادَ وشَاد

* * *

مْ مِنْ غَرِيْرِ اسْتَطالَ وادَّعى حَصَافَةَ الفِكْرِ وَدِقَّة النَّظَرْ
ذْ خَبَرَ الوُجودَ والدُّنيا معاً وما لَدَيْهِ عَنْ وُجُودِهِ خَبَرْ

* * *

لَ نَقْشَ الحقِّ مِنْ خَاتَمِهِ وكلُّ خَيْرٍ عن ضَمِيْرِهِ اسْتَتَرْ
ذْ وُلِدَ الرَّجاءُ في عالمه لكنَّه في المَهْدِ وَلَّى وانْدَثَرْ[1]

* * *

ا تَصْنَعُ الأيَّامُ بالقَوْمِ الأُلى لمْ يُرْزقوا حظّاً مِنَ العَزْمِ الغَيُور
أصْبَحَتْ أرواحُهم رَهْنَ البلى[2] وما سِوى أجسامِهم لها قُبُور

* * *

ـزَّقَ الكبارُ أستارَ الحياء وقلَّد الشَّبَابُ صُنْعَ الغَانِيَات[3]

انْدَثَرَ : دثر وامَّحَى وفني .
البِلى : الفناء ، ومنه بلي الميت أفنته الأرض .
الغانياتُ : النِّساء الغنيَّات بحسنهنَّ وجمالهنَّ عن الزينة .

كـأنَّهـم بيـنَ عـوامـلِ الفَنـاء ... يـأتـونَ مَـوْتـى مِـنْ بُطـونِ الأمَّهـات

* * *

وهـذه الحسنـاءُ تَقْضـي يَـوْمَهـا ... فـي منظـرٍ عـارٍ وصبْـغٍ مُسْتَعـار
سـاعِـدُهـا الفِضِّـيُّ يُبْـدي جِسْمَهـا ... بمنظـرِ الأسمَـاك في لُـجِّ البِحار[1]

* * *

جمـودُ هـذا الشَّعـبِ عَـنْ كفـاحـه ... يحكـي رمـاداً ليـس تَحْتَـه شَـرَر
مسـاؤُه رانَ علـى صبـاحِـه ... بظلمـةٍ فـي ليلهـا زاغَ البَصَـر[2]

* * *

كـلٌّ يعيـش فـي إطـار نَفْسِـه ... والعيـشُ والمُتْعَـةُ فـي الـدُّنيـا مناه
يَخْشَـى البِلَـى قَبْـلَ حُلُـولِ رَمْسِـهِ[3] ... فـاعْجَـبْ لِمَيْـتٍ لَـمْ يَـزَلْ قَيْدَ الحياه

* * *

وذو الغِنى في الشُّحِّ يحكي جَلْمَدا ... ومـالُـه فـي اللَّهـو يُغْـرِقُ السَّحـاب
حيـاتُـه ضـاعـت على الغـيِّ سُـدَىً ... تَشْغَلُـه قشـورُهـا عَـنِ اللُّبَـاب

* * *

يَبِيْـعُ دِيْنَـه لِـدُنيـا غيـره ... وفـي رِضَـا غـاصِبِـه يَسْتَشْهِـد
وَيَـوْمُـه الحـاضـرُ كـلُّ عُمْـرِه ... فَلَيْـسَ فِـي تـاريـخِ دُنيـاه غَـدُ

* * *

وكَـمْ تـرى فـي القَـوْمِ حَمَّـالَ كُتُـب ... ثقيلـةٍ يعيـا بِحَمْلِهـا جَمَـلْ

---

(١) لُجُّ البِحارِ ، أي : عُرْضُها .

(٢) زاغَ البَصَرُ ، أي : مَالَ عن مستوى النظر حيرةً وشُخوصاً ، وفي التنزيل ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ .

(٣) الرَّمس : هو التُّراب الذي يُحثى على القبر .

يـدورُ فـي النَّـاس كحمَّـالِ الحَطَـبْ ويُـرْسـلُ الأقـوالَ مِـنْ غَيْـرِ عَمَـلْ

* * *

ولاؤه لِلْغَيْـــرِ كـــلُّ هَمِّـــهِ حتـى بنـى الـدَّيْـرَ بـأحجـارِ الحَـرَم
مـــاتَ ولكـــنْ مـــا دَرَىٰ بِمَـــوْتِـــهِ قَـدْ عـاشَ وَهْمـاً ثُـمَّ واراهُ العَـدَم

* * *

كلمةُ التَّوحيد
لا إله إلَّا الله

(رباعيات)

إنَّ لهذه الكلمة تأثيرها البالغ في حياة الأمم ، فإنَّها للفرد والمجتمع عقيدة القوَّة ، وركيز التقدُّم والانطلاق ، وإفراد العبودية للخالق ، ورفضُ كلِّ عبودية لما سواه ، فالمؤمن لا يخضع الجبين إلا لله الذي يقول له : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] .

تلك هي كلمة التَّوحيد التي تُجدِّد الصُّورة الإنسانية في القالب التُّرابيِّ هيكلاً من النور ، تحمل كلمة التوحيد أهوال يوم النُّشور ، يقول محمد إقبال :

فـي مقـام التَّـوحيـد يَشْـدُو خيـالـي بصـدى الحـقِّ مِـنْ رِجـالِ الحَـال
إنَّمـا تُـدْرِكُ القلـوبُ هـداهـا بِصَفـاءِ الأحـوالِ لا الأقْـوَال

* * *

حـرف (لا) مُظْهِـرٌ لسـرِّ الجـلال وهـو للجَـوْر منـذرٌ بـالـزَّوال
بَعْـدَ نفـي الظَّـلامِ والظُّلـم يبـدو عنـد (إلَّا) إشـراقُ صُبْـحِ الجَمَـال

* * *

لا وإلَّا فَتْـحٌ لبـابِ الحَيَـاةِ واحتسـابُ الـوُجـودِ والكـائنـاتِ

بِهِمـا تَقْهَـرُ المهـانـةَ والضَّيْـمَ وتمضـي الأمـورُ فـي الحـادثـات

* * *

حِيْـنَ يَقْـوى مَـعَ الـرَّجـاء اليقيـنُ فجـوابُ الأقـدارِ كُـنْ فَيَكُـوْنُ
يَـدْفَـعُ النَّفـيُ للتحـرُّك والجِـدِّ وَعِنْـدَ الإثبـاتِ يـأتـي السُّكُـوْنُ

* * *

كـلُّ شَعْـبٍ يَـرُوْمُ عِـزَّ حمـاه فبنـور التَّـوحيـد لا بسـواه
ليـس يحمـي بـلادَه غَيْـرُ حـرٍّ سيفُـه (لا إلَـه إلا اللهُ)

* * *

حـرفُ (لا) آيـةٌ لبَـدْءِ المسيـر فـي طـريـقِ الجهـاد نَحْـوَ المَصِيْـر
إنَّهـا أولُ المَنَـازلِ طـرَّاً لـرجـالِ الله العلـيِّ القَـديـر

* * *

كـلُّ شعـبٍ يمضـي بِخَطْـو سـديـدِ لِلْعُلـى فـي حَـرَارةِ التَّـوْحيـد
يَبْتَنـي مِـنْ تُـرابـه صـرحَ دُنيـاهُ ويحيـا فيهـا بِخَلْـقٍ جَـدِيْـدِ

* * *

قـولُ (لا) ثـورةٌ أمـام الطُّغـاة هـو عِنْـدَ الأحـرارِ معنـى الحيـاة
ثـورةٌ مـنْ نِضَـالهـا يُصْنـعُ المَجْـدُ ويبـدو تَجَـدُّدُ الكـائنـات

* * *

لَيْـسَ فـي ذلـكَ الجنـونِ العـريـقِ كـلُّ ثـوبٍ يفـوزُ بـالتَّمْـزِيـق
لا أرى في الغُثَاء[1] والقشِّ[2] يوماً حَطَبـاً صَـالحـاً لهـذا الحَـرِيْـقِ

* * *

---

(١) الغُثاء : هو ما يحملُ السَّيلُ من رغوةٍ ومن فُتات الأشياء التي على وجه الأرض .
(٢) القَشُّ : هو ما يتخلَّف من القمح والرز ونحوهما بعد استخراج حبِّه .

لـو يَمَسُّ التَّـوحيـدُ فِكْـراً نقيًّـا وضميـــراً حيًّـــاً وقَلبـــاً أبيًّـــا
لأحـالَ الخُمـولَ والضَّعْـفَ إيمـاناً وعـزمـاً يغـزو نُجُـومَ الثُّـريَّـا[1]

***

حـرف (لا) صَيْحَـةٌ تثيـرُ العبيـدَ ليـزولـوا مـا لَـمْ يُـزيلـوا القُيـودا
ويقيمـوا فـي الـدَّهـر عصـراً مجيـدا لا تَـــرى فيـــهِ سيِّـــداً ومَسُـــودا

***

لو سَرتْ شعلةُ الهدى في الصُّدور وتمشَّـــى وميضُهـــا فـــي الضميـــر
لأقـــامَ الأحـــرارُ لِلْهَـــوْلِ يـــومـــاً يتحـــدَّى أهـــوالَ يـــومِ النُّشـــور

***

صوتُ (لَا) مِنْ دَويِّ صوتِ الرُّعود ليـس شكـوى نـايٍ ولا لحـنَ عُـوْدِ
لَوْ يَضيقُ الفضاءُ يوماً على الحرِّ تخطَّـــى بـــه نِطـــاقَ الـــوُجـــود

***

يـا لهـا مـنْ ذِكـرى لأمجـادِ العَـرَبْ آيـــةٌ كُبْـــرَى وتـــاريـــخٌ عَجَـــبْ
حـــرَّروا أقـــدارَهـــم بـــالعَـــزَمـــاتِ في جميع الكَوْنِ منْ كلِّ الجهاتِ
فـازْدَهـىٰ مـنْ نـورهـم كـلُّ مكـانٍ وتغنَّـــى بـــاسمِهـــم كـــلُّ زمـــانِ
لـمْ تَـدُمْ عُـزَّىٰ[2] ولـم تَبْـقَ مناةُ[3] هَـوَتِ الأصنـامُ تَحْـتَ الضَّـربـاتِ
حِيْـنَ نـادى المـؤمنـون (اللهُ أكبـر) زالَ كِسْـرى وانْطَـوَتْ أعـلامُ قَيْصَـر
أيُّ سيـــلٍ هـــادرٍ عـــمَّ الضَّحـــارىٰ أيُّ طـوفـانٍ جـرى يغـزو البحـارَ

---

(١) الثُّرَيَّا : مجموعة من النجوم .
(٢) عُزَّى : صنم كان لبني كنانة وقريش ، أو شجرة من السَّمُر كانت لغطفان بنوا عليها بيتاً وجعلوا يعبدونها ، فبعث إليها رسولُ الله ﷺ خالد بن الوليد فهدم البيتَ وأحرق السَّمُرةَ .
(٣) أحد أصنام العرب في الجاهلية .

هـؤلاءِ العَـرَبُ الصِّيـدُ الأبـاه ... وحَّـدوا الخَلْـقَ بتـوحيـدِ الإلَـه
شعلـةٌ مِـنْ نـورهـا الحـقُّ أضـاء ... مـنْ تحـدَّى نـارَهـا أضحـى هَبَـاء
قـد أبـادوا كـلَّ شيطـانٍ مـريـد ... وأزالـوا كـلَّ جبـارٍ عنيـد
وسَمَـوْا فـوقَ الـدَّراري منـزلا ... كـلُّ هـذا كـانَ مـنْ أنـوارِ (لا)
بينمـا العـالـمُ كـالعَظْـمِ الـرَّميـم ... في سهـوبِ الأرضِ أو دَيْـرٍ قَـدِيم
أنشـؤوا دنيـاه فـي خلـقٍ جَـدِيْـدْ ... وأقـامـوهـا علـى النَّهْـج الـرَّشيـد
أيقظـوا الـدُّنيـا بتكبيـر الأذان ... فجـرى الحـقُّ علـى كـلِّ لِسـان
كـلُّ خيـرٍ يُـرتجـى مـنْ غَـرْسِهـم ... كـلُّ نـورٍ يُجْتَلـى مـنْ شَمْسِهـم
كـلُّ روضٍ بـالمعـالـي مُخْصـبُ ... فهـوَ مـنْ شـاطـىء نَهْـرِ العَـرَب
قـد أزالَ العُـرْبُ مـن لـوحِ القُلـوب ... نَقْـشَ غيـر (الله) ، عـلاَّمِ الغُيـوب
فـأقـامـوا فـي شَمَـالٍ وجنـوب ... ثـورةَ الإيمـانِ فـي كـلِّ الشُّعـوب
فتـرى فـي أُمـمِ الغَـرْب العبيـد ... حطَّمـوا القَيْـدَ بعـزمٍ مـنْ حَـدِيْـد
أعلنُـوا الحـربَ علـى سـاداتهـمْ ... واستـردُّوا أمْـنَ حـرِّيَّـاتِهِـمْ

* * *

صـارَ شعـبُ الـرُّوس نـاراً ودمـا ... بـاسـم (لا) حتـى أثـارُوا الأمَمـا
فـاستهـانُـوا بتقـاليـدِ الـزَّمـنْ ... وأطـاحُـوا بمعـاييـر السُّنَـنْ
وَقَـفَ الـرَّكْـبُ بهـم فـي بـابِ (لا) ... لـم يـرومـوا نَحْـوَ (إلَّا) منـزلا
ستـراهُـمْ كجيـوشٍ زاحفـه ... بعـد حيـنٍ يَقْهـرُون العـاصفـه
وتـرى لِلْقَـوْمِ أمـراً عَجَبـا ... نحـو (إلَّا) يَـدْفَعُـون المَـوْكبـا
لا و(إلَّا) بهمـا العَـدْلُ انتظـمْ ... كـلُّ نفـيٍ دُوْنَ إثبـاتٍ عَـدَمْ
إنَّ لِلْفِطْـرَةِ فـي كـلِّ ضَمِيْـر ... هـاتفـاً يَـدْعُـو لِتَـوْحيـدِ القَـدِيْـر
لم يبنْ في حرف (لا) صدقُ الخَليل ... دونَ (إلَّا) فهـيَ لِلصِّـدق دَليـل
يـا مقيمـاً فـي زوايـا الحُجُـرات ... يَحْشُـدُ الألفـاظَ حَشْـدَ المَكْتَبـات
إنْ تكـنْ فـي مثـل نيـران الخليـل ... أَسْمِـعِ النّمـرُودَ تَـوْحِيْـدَ الجليـل

والـــذي تبصـــرُه حـــولَ الفَضـــاء ... لا يســـاوي قَـــدْرُه وزنَ الهَبَـــاء[1]
كـلُّ حـرٍّ فـي يـديـه سيـفُ (لا) ... ثـــمَّ لا يَقْبَـــلُ عَنْـــهُ حِـــوَلا
فهـو للعليـاءِ دومـاً فـي صُعُـود ... أمـرُه النَّـافـذُ فـي كـلِّ الـوجـود
أيهـا الشـادي بقـرآنٍ كـريـم ... وهـو فـي عُـزْلَتِـهِ نـاءٍ مُقيـم
قـمْ وأسْمِعْـه لكـلِّ العـالميـن ... قُـمْ وأبْلِغْـه البَـرايـا أجمعيـن

***

فَقْر الصَّالحِين

خصَّ إقبال موضوع فَقْر الصَّالحين بهذه الأبيات على أسلوبٍ خاص من التعبير تعريفاً بقيمة الفقر ومراميه ، يقول :

يـا عبيـدَ المـاءِ والطِّيـن اسْمَعُـوا ... مـا هـو الفَقْـرُ الغنـيُّ الأرْفَـعُ
هـو عِـرْفـانُ طـريـق العـارفيـن ... وارتـواءُ القَلْـبِ مـنْ عَيْـنِ اليَقيـن
ذلـكَ الفقـرُ عـزيـزٌ فـي غِنَـاه ... هـامـةُ الجَـوْزاء مـنْ أدنـى خُطـاه
يُحْكِـمُ الإبـداعَ فـي صنـع الحيـاه ... ويـرى التَّـوحيـدَ نبـراسَ هُـداه
يَـرْعَـشُ الكـونُ إذا دوّىٰ صَـدَاه ... لَيْـسَ غَيْـرَ اللهِ فـي الكَـوْنِ إلَـه
خَيْبَـرُ حـرَّرهـا ذاك الفقيـر ... لـمْ يكـنْ ثَـمَّ سِـوَى خُبْـزَ الشَّعير
خـاشـعٌ لله ذيَّـاكَ القـديـر ... وإليـهِ خـاشعـاً يَسْعَـى الأمير
حـالُـه ذَوْقٌ وَشَـوْقٌ وَرِضَـا ... ثُـمَّ تسليـمٌ لمـا اللهُ قَضَـىٰ
يـا لَـهُ كَنْـزاً بـه العَيْـشُ صفـا ... فهـو ميـراثُ النَّبـيِّ المصطفـى
ليلـه المُظْلِـم لِلْمَجْـدِ سِـرَاجْ ... يَصْنَـعُ الجَـوْهَـرَ مـن أدْنـى زُجـاج
يَقْهَـرُ المؤمـنُ نـامـوسَ[2] الفَلَـكْ ... فهـو إنسـانٌ وفـي النُّـور مَلَـكْ

---

(١) الهَبَاءُ : التُّرابُ الذيّ تُطيره الرِّيحُ ويلزق بالأشياء .
(٢) نَامُوس : القانون أو الشريعة .

فَلَقَدْ تَنْقُلُ دُنْيَاكَ إلى ... حالةٍ أسْمَى وشأنٍ أفْضَلا
في هُدى القرآن والذِّكر الحكيم ... دائمَ الإسعادِ مَوْصُولَ النَّعيم
ذلكَ المِسْكينُ في رُقْعَتِه ... يَسَعُ العالَمَ في مُهْجَتِه[1]
صامتٌ ليس يُطيل الكَلِمَا ... وهو بالصَّمْت يربِّي أُمَما
ولهُ من طاقةِ الرُّوح جِنَان ... يَمْنَحُ الخَامِل ذَوْقَ الطَّيَران
حوَّل العصفورَ نَسْراً في الفضاء ... فبدا للأرض تفسيرُ السَّماء
بنداءِ الحقِّ يُحيي مُدُنا ... وَبِصِدْقِ العَزْمِ يَبْني وَطَنا
مسلمٌ دولتُه فوقَ الحَصِير ... كانَ يخشى بأسَهُ ألفُ سَرير
ليس يَرْضى العَيْشَ إلَّا في مَقَام ... يستوي الشَّاهين فيه والحَمَام
لا يبالي منْ له هذا السُّلوك ... أنْ يقولَ الحقَّ في وَجْه المُلوك
يتلاشى الجَمْرُ في نِيْرانه ... ويخافُ البَحْرُ منْ طُوفانه
صوتُه في الشَّعْبِ يذكي لَهَبا ... وتخافُ النَّارُ منه الحَطَبا
لا تَرى الأمَّةَ تَخْشَى منْ مُغِيْر ... وَلَدَيْها مِثْلُ ذيَّاك الفقير
نحنُ باستغنائه نلقى الغِنَىٰ ... وعلى أشواقِه نَرْجُو المُنى
فامْتَحِنْ وَجْهَكَ في مِرْآته ... وانْشُدِ الحِكْمَةَ منْ آياته
تَكْتَسِبْ منه مَزايا الصَّادقين ... وتَفُزْ منه بسلطانٍ مُبين
تَتَجلَّى حكمةُ الدِّين جمالا ... حين يُبْدي الفَقْرُ عِزَّاً ودلالا
قوةُ الدِّين وتَشْيِيْدُ عُلاه ... في تسامي الفَقْرِ عن ذُلِّ الحياه
كُلُّ منْ آمنَ بالله الأحد ... لا يُذِلُّ النَّفْس يوماً لأحد
إنْ يكن في صُورة النَّمل خَفَاء ... ليسَ يَرْجو منْ سُليمانَ عَطاء
قال خَيْرُ الخلقِ تاجُ المُرْسلين ... كلُّ أرضٍ مسجدٌ للمؤمنين
كيف يعلو منبراً لِلْمُسلمين ... فَوْقَ أرضٍ في يد المُسْتَعمرين
يا لها كارثةٌ في العالَمِين ... مسجدُ الهادي بأيدي الغاصبين

---

(١) المُهْجَةُ : الرُّوحُ .

حَـرِّرِ الأرضِ معـاً والمَسْجِـدا ... لا يكـنْ غَيْـرُكَ فيهـا سَيِّـدا
أيُّهـا النَّـاصِـحُ ليـلاً ونهـارا ... داعيـاً أنْ نتـركَ الـدُّنيـا احتقـارا
إنَّ معنـى تَـزْكِهـا تسخيـرُهـا ... فـي سبيـلِ الخَيْـرِ لا تَـدْمِيـرُهـا
والـذي يَعْلُـو علـى صَهْـوَتهـا ... يـأمَـنُ المِحْنـةَ مِـنْ عَثْـرَتِهـا
فـاتَّخِـذْهـا مِـنْ مطـايـا الآخِـرة ... تنـجُ مـنْ تِلـكَ العجـوزِ السَّاحِـره
هـي صَيْـدُ المؤمـنِ الحـرِّ الجَسُـور ... قبـلَ أنْ يصطَـادَه فيهـا الغُـرور
كـلُّ زُهْـدٍ لـم يكـنْ مـنْ واجـدِ ... فهـوَ سَلـوىٰ لِعَـديـمٍ فـاقِـدِ
أنـا مـنْ مُشْكلتـي طـالَ اكتئـابـي ... حلُّهـا أعيـا علـى الجُهْـدِ صـوابـي
أيُّهـا الشَّـاهِـنُ[1] مـا هـذا الجُمـود ... أيـنَ مِنْـكَ البـأسُ أوْ أيـنَ الصُّعـود
يائسٌ أمْ أنت مَقْصُوصُ الجَنَاح[2] ... أمْ خَشِيْتَ الوَثْبَ في هَوْجِ الرِّياح
مـا شكـا مِخْلبـكَ النَّسْـرُ ولا ... فـرَّ مـنْ عَـزْمِـكَ طَيْـرٌ فـي الفـلا
الجبـالُ الشُّـمُّ والآفـاقُ لَـكْ ... أيُّهـا الهـاربُ مـنْ أوجِ الفَلَـك
طِـرْ إلـى النَّجْـمِ وَحَلِّـقْ مـنْ جَـدِيْـد ... فـي الفَضَـاء الـلازورديِّ البَعِيْـد
فقـرُنـا تُمْليـه آيـاتُ الكِتـاب ... لَيْـسَ فـي رَقْـصٍ وسُكْـرٍ وَرَبَـابْ
فقـرُنـا معنـاهُ تَسْخيـرُ الجِهـات ... واحتسـابٌ لجميـعِ الكـائِنـات،
يَـرْفَـعُ المـؤمـنَ فَـوْقَ الشُّبهـات ... مَظْهَـراً أعلـى لِقُـدسـيِّ الصِّفـات
فقـرُ أهـلِ الكُفْـرِ هَـدْمٌ لِلْفِطَـرْ ... ومجـافـاةٌ لِعُمـران البَشَـرْ
عَيْشُـه بيـن المـرامـي والكُهـوف ... لا تـرى مَـوْضِعَـهُ بَيْـنَ الصُّفـوف
لـمْ يَكُـنْ فـي الـدَّهـر منـذُ المَـوْلِـدِ ... غَيْـرَ صِفْـرٍ فـي يسـارِ العَـدَدِ
ليـس للمـؤمـن بـالفَقْـرِ اعتـزالْ ... هـو فـي البـرِّ وفـي البحـر نِضـالْ
بينمـا الأول فـي صَمْـتِ الجُمـود ... سـارَ هـذا نحـو تعميـرِ الـوُجـود
ذاكَ يطـوي العُمْـرَ فـي تـركِ البَـدَن ... طـالبـاً للـرُّشْـدِ أو تَـرْكِ الـوطـن

---

(١) الشَّاهِيْن : طائر منّ جوارح الطَّير وسباعها ، من جنس الصقر .

(٢) مقصوص الجناح : مقطوع الجناح .

وترى المُؤمنَ في أمَّته ... يَنْشُد الحقَّ بذاتِيَّته

نحو إدراك المعالي ساعيا ... وسراجاً في الليالي هَادِيا

فقرُنا الحرُّ إذا ناجى القَدَرْ ... يُرْهِبُ الشَّمْسَ ويَحْتَلُّ القَمَرْ

فقرُنا العاري تولاه الزَّوال ... قد نأى المُسْلِمُ عن هذا الجَلال

إنَّه إيمانُ بدرٍ وَحُنَيْن ... إنَّه زلزالُ تكبيرِ الحُسَيْن

أسفاً لمْ يَبْقَ عندي سَيْفُ (لا) ... وأرى غِمْدَكَ منه قَدْ خلا

أسَفاً ، إنِّي أرى دُنيا الفِتَنْ ... زَلْزَلَتْ إيمانَه فيها المِحَنْ

يا شبابَ الحقِّ ، يا ذُخْرَ الشُّعوب ... حرِّروا مِمَّا سوى اللهِ القُلوبْ

إنَّ دنيا اليومِ أبلاها القِدَمْ ... فاخْلُقوا دُنيا سِواها في الأمم

أينَ مِنْكُم يا ذوي المَاضي الكريم ... غيرةُ الأحرارِ للدِّين القَويم

طالَ هذا النَّوْمُ عنْ صونِ حَمَاهْ ... ما أرى المَوْتَ سوى هذي الحَيَاهْ

يدأبُ الحرُّ غُدُوّاً وعَشِيَّا ... ثُمَّ يبني ذاتَه صَرْحاً عَلِيَّا

وَجِهادُ المُصطفى برهانُه ... وسجايا المُصطفى ميزانُه

يا لقومٍ ، أنجبوا كلَّ أمير ... فمتى يُولَدُ في القومِ فَقِيْر

لا تَسَلْ عنْ قصَّةِ القَوْمِ بيانا ... أسكتَ الدَّمْعُ عن الوَصْفِ اللِّسانا

أَلَمٌ أغْمدَ في صَدْري سِهَامَه ... هوَ في قلبي كأهوالِ القِيَامَه

هَوْلُ هذا الحَشْرِ أعيا الواصفينا ... فليقدَم في الصَّدْرِ مَطْوِيّاً دَفينا

قوةُ الدِّين في النَّصر القَريبْ ... فكأنَّ القَوْمَ في شكٍّ مُريب

أينَ مَسْعَاهُمْ وَهُمْ في العَاجلهْ ... قَطَعُوا عَمْداً طريقَ القَافِلهْ

ليس للشَّيطانِ فينا مأربُ ... لا ولا لِلِّصِّ منَّا مَطْلَبُ

فتراثُ الدِّين قد طار شُعاعا ... وتراثُ المَالِ قدْ ولَّى ضَيَاعَا

كمْ تغنَّى بمَزايا بَايَزيد[1] ... ذو رياءٍ هُوَ لِلْوَرْدِ مُرِيْد

فيرى في دولةِ الأغيارِ رَحْمه ... وكأنَّ الذُّلَّ في دُنياه نِعْمَهْ

---

(١) لا أدري مَن يريدُ الشاعرُ به .

وينـــادي أنَّ حُكْـــمَ الـــدُّخـــلاء ... فيـــه للـــدِّيـــن ازدهـــارٌ وارْتِقَـــاء
أيُّهـــا المحـــرومُ مِـــنْ وِجْـــدانِـــه ... وَمِـــنَ الشَّـــوْقِ وَمِـــنْ أشْجَـــانِـــه
أوَ تَـــدْري أنَّنـــا مِـــنْ عَصْـــرِنـــا ... غـــربـــاءُ فيـــهِ عَـــنْ أنفُسنـــا
كـــلُّ حـــيٍّ معـــرضٌ عـــن ذاتـــه ... فَقَـــدَ الجَـــوْهَـــرَ مِـــنْ مِـــرآتِـــه
عِـشْ ولـو يـومـاً عـزيـزَ المَطْلَـبِ ... أجنبيـاً عـنْ طـريـقِ الأجْنَبـي
مَنْـزِلُ الشَّـاهيـنِ فـي أوجِ السَّحـاب ... مـا لَـهُ يَسْكُـنْ فـي وَكْـرِ الغُـرَاب
لـم يَـزَلْ فـي الـرَّوضِ ظـلٌّ وَثَمَـر ... فـالتَمِـسْ عُشَّـك فـي أعلـى الشَّجَـر
كُنْ كحدِّ السَّيفِ في صِدْقِ المَضاء ... واحْتَسِبْ نَفْسَكَ في كفِّ القَضاء
إنَّ فـي رُوحـك سيـلاً كـالعُبـاب ... يَنْسفُ الشُّمَّ ويهـوي بـالهِضـاب[1]
انـدفـاعُ السَّيْـل إثبـاتُ البَقَـاء ... وسكـونُ اللَّيْـلِ معنـاهُ الفَنَـاء
أنـا لـمْ أسلُـكْ إلـى الفِقْـهِ سبيـلا ... أتحـرَّى الحُكْـمَ فيـه والـدَّليـلا
لـم أكـنْ فـي الفَقْـرِ ذا فهـمٍ دَقِيْـق ... فـي سلـوكٍ بيـن رُوَّادِ الطَّـريـق
فكـرةٌ جـاشَ بهـا القلـبُ اضْطـرابـا ... ثـمَّ لـمْ أمْلِـكْ عـن القَـوْلِ احْتِجَـابـا
كُنْـتُ فـي الـدِّيـن حَـدِيْـدَ البَصَـرِ ... رَغْـمَ مـا بـي مـنْ قصـورِ النَّظـر
وانجلـت واحـدةٌ بَيْـنَ مئـات ... بَعْـدَ لأيٍ مـن ألـوفِ المُشكِـلات
فـاغْتَنِـمْ مـنْ فـاقتـي حظَّـاً يسيـرا ... فَعَسَـى ألا تـرى مِثْلـي فَقِيـرا
أيهـا الشَّـادي بقـرآنٍ كـريـم ... وهـو فـي ركـنٍ مـن البيـتِ مُقِيْـم
قُـمْ وأبْلِـغْ نـورَه للعـالميـن ... قُـمْ وأسمعـه البَـرايـا أجمعيـن
إنْ نَكُـنْ فـي مِثْـلِ نِيـرانِ الخَليـل ... أسْمَـعَ النَّمـرودَ تـوْحِيْـدَ الجَليـل
مـنْ لـهُ مـنْ ثـروة الهـادي نَصيـب ... فَهْوَ منْ جبريلَ في الدُّنيا قَريب
يـا غـريبـاً عَـنْ مقـامِ المُصْطفـى ... عُـدْ إلـى الحـقّ تَجِـدْ نُـوْرَ الصَّفـا

***

---

(١) الهضَابُ ، جمع هَضْبة : جبل منبسط ممتدٌّ على وجه الأرض .

الرجلُ الحرُّ

قدَّم إقبالُ في أبياته السَّابقة صفات الفقير المؤمن بالله ، إلّا أنَّه شاء أن يخصَّ المسلمَ الحرَّ بهذه الأبيات نظراً لما للحرية من مكانة ، وما للرَّجلِ الحرِّ من مقام ، ولذا نجد إقبالًا يكرِّر في هذه الأبيات بعضَ المعاني كصاحبِ رسالةٍ نظراً إلى ذلك الارتباط الوثيق بين حرِّية الفقير وفقر المؤمن ، يقول :

فَوْقَ مسرى النَّجْمِ للحرِّ هَدَفْ ... وِرْدَهُ في كلِّ حينٍ لا تَخَفْ

آمِنٌ في سِلْمِه في حَرْبِه ... رأسُه في الكفِّ لا في جَيبه

عَرَفَ اللهَ فَلَمْ يَرْهَبْ سِواه ... كيفَ يخشى الخَلْقَ منْ خافَ الإلَه

لا يرى قطُّ مَعَ البُؤْسِ المرير ... عَبْدَ سلطانٍ ولا ظِلَّ أمِيْر

جمَلٌ في البِيْدِ موصولَ الصِّيام ... يَحْمِلُ الأثقالَ والشَّوْكَ طَعام

هُوَ نَبْضٌ في عُروقِ الأمَلِ ... وهو سَعْيٌ في طريق العَمَلِ

منْ علا تكبيرُه مِنْ غير تَاج ... يُلْزِمُ التيجان تقديمَ الخَراج

قَدْ ذَكَتْ نيرانُنا مِنْ جَمْرِه ... وَجَرَتْ أنهارُنا مِنْ خَمْرِه

جنَّةُ الوَرْدِ شذاً منْ سِحْرِهِ ... شعلةُ المَجْدِ سناً منْ فكره

وترى في قصرِهِ ربَّ السَّرير ... راعشاً منْ سَهْمِ عُرْيانٍ فَقِيْر

شأنُنا في الدِّين لا يعدو الخَبَرْ ... وهو في الدِّين شُهودٌ ونَظَرْ

نَحْنَ عند الباب نستجدي الأماني ... وهو في الدَّار وفي طِيْبِ المَجَاني

أصْبَحَ الدَّيرُ لدينا مَقْصدا ... نحنُ لِلْغَيْر نبيعُ المَسْجِدا

وهو يُسْقَى منْ يمينِ المُصْطفى ... كوثراً عَذْباً به الوردُ صَفا

في ضميرِ الحرِّ تكبيرُ الإلَه ... في جبينِ الحرِّ تقديرُ الأُمم

نحنُ للإفرنج أسْلَمْنا القِيادا ... واتخذناهُم لدى الجُلَّى عَتَادا

وابتغينا عندهم عِزَّتنا ... وجعلنا ودَّهم قِبْلتنا

وشعارُ الحرِّ عزمٌ وإباء ... رزقُه مِنْ يدِ جبَّار السَّماء

فلغير الله ما مَدَّ اليمين ... لغير الله لم يَحْنِ الجَبين

متعةُ الدُّنيا لنا كلُّ المَرام ... ثمَّ يأسٌ ثُمَّ قَبْرٌ وظلام
هو في الحقِّ جهادٌ وثبات ... موتُه إحدى مقاماتِ الحَياة
إنَّنا نبني قصوراً في الخيال ... ونرى المُمْكنَ في حُكْمِ المُحال
وهو بالأعمال في كلِّ مجال ... لا يُضيعُ العمرَ في زَيْفِ الخَيال
لو رمى شُمَّ الجبالِ العاتيه ... حوَّل الصَّخْرَ بحاراً جاريه
اجتنبْ صُحْبَتَنا واسْعَدْ به ... إنْ تُرِدْ خيراً فكنْ من صَحْبِه
الزَمِ الحرَّ ودعْ أهلَ البَوَار[1] ... اهدمِ الدَّارَ وكنْ صاحبَ دار
صحبةُ الحرِّ إلى العلياءِ باب ... هي خيرٌ لكَ منْ ألفِ كِتَاب
صحبةُ الحرِّ تنيرُ العالم ... وَلَقَدْ تَخَلَّق مِنْهُ آدم
قُرْبُه للعزِّ أصفى مَنْهَلِ ... لكَ في البَحْر غنىً عنْ جَدْوَلِ
هُوَ يَوْمَ السِّلْم في أوطانه ... آيةُ التغييرِ في عُمْرَانه
بجديد الفِكْرِ يحيي عَصْرَهُ ... مِثْلَما يَنْشُر رَوْضٌ عِطْرَهُ
وَهْوَ يومَ الحَرْبِ في مَيْدانها ... ثورةُ البُركان في نِيرانها
سيفُه يحفِرُ فيها قَبْرَه ... أو يتمُّ اللهُ فيها نَصْرَهُ
ليسَ زَرْعُ القلبِ في ماءٍ وطين ... هيناً إلَّا لأصحابِ اليقين
إنْ أردْتَ العَيشَ حُرَّاً صافيا ... فالتزمْ في الدَّهر حرَّاً هاديا

***

رُباعيَّات[2]

أقْبَلَ الحرُّ على يومِ الفِداء ... ومضى يرمي على النَّجْمِ الهَدَفْ
وكأنَّ الوَحْيَ لَقَّاهُ النِّداء ... منْ سماءِ الله أقدِمْ لا تَخَفْ

***

---

(١) أهل البَوَار : أهل جهنَّم .

(٢) ولقد أعاد المترجم صياغة هذه المنظومة في رباعيات .

أشْرَقَ التوحيدُ نوراً في هداه وسرى التحريرُ مِنْه في الضَّمير
أتُرى مَنْ لم يَخَفْ غيرَ الإلَه يَرْهَبُ السُّلطان أو يَخشى الأمير

***

روحُه تكشفُ أسرارَ الخُلود عن حياةٍ ما لها في الدَّهْرِ مَوْت
يرسلُ التكبيرَ مِنْ قلبِ الوُجود لغةٌ تُغْنيه عن حَرْفٍ وَصَوْت

***

سلْ ملوكَ الأرضِ عن دُنيا الغُرور في الملاهي خَلْفَ أستارِ الحرير
زَلْزَلَتْهُمْ بين أبراجِ القُصور ضربةٌ مِنْ سَهْمِ عُريانٍ فقير

***

ضَرَبَ البَحْرَ كموسى بعصاه ورمى الصَّخْرَ حُطاماً مِنْ زجاج
ذلك الأوَّابُ في ثوبِ تقاه ألزمَ التِّيجان تقديمَ الخَرَاج

***

قَدْ جَرَتْ أنهارُنا مِنْ بَحْرِه وأضاءتْ نارُنا مِنْ خمره
بسمةُ الوَرْدِ شذا مِنْ عِطْرِهِ شعلةُ المَجْدِ سنا مِنْ فِكْرِه

***

شأنُنا في الدِّين لا يعدو الخَبَرْ وهو في الدِّين شهودٌ ونَظَرْ
نحنُ عند الباب في ظلِّ الشَّجَرْ وهو في الدَّار وفي مَجْنَى الثَّمَرْ

***

لبني الإفرنج في الدُّنيا عَبِيْد في قيودٍ من حريرٍ أو حَدِيْد
كمْ تغنَّى بمزايا بايزيد ذو رياءٍ وهو للوردِ مُرِيْد

***

في حديثِ المُصْطفى شمسُ الهُدى كلُّ أرضٍ مَسْجِدٌ للمؤمنين

كيفَ تبني فَوْقَ أرضٍ مسجدا إنْ تَرَكْتَ الأرضَ لِلْمُسْتَعمرين

* * *

ليسَ حيَّاً مَنْ يُرى مُسْتَعبَدا لِسِوىٰ مَنْ في يديه رزْقُه
سَيِّد مَنْ ليس يرضى سيِّدا ما خلا ربِّي فكلٌّ عَبْدُه

* * *

في ضَمِيْرِ الحرِّ تكبير الإلَه في جبين الحرِّ تقديرُ الأُمم
موتُه أعلى مقاماتِ الحياه تَرْفعُ الدُّنيا لِذِكْراه العَلَم

* * *

هو يوم السِّلْم في نَهْضَتِهِ بِيَدِ الإصلاح يَبْني عَصْرَه
ويذيعُ الخَيْرَ في أمَّتِه مِثْلَمَا يَنْشُرُ رَوْضٌ عِطْرَه

* * *

وَهْوَ يَوْمَ الحَرْبِ في سَاحَتِهِ سيفُه يَحْفِرُ فيها قَبْرَه
يتحدَّى الموتَ في وَثْبَتِه أو يُتمُّ العَزْمُ فيها نَصْرَه

* * *

إنَّ غَرْسَ الحقِّ في نورِ القُلوب غَيْرُ شأنِ الزَّرع في ماءٍ وَطِينْ
فالتَمِسْ لِلْمَجْدِ أحرارَ الشُّعوب إنَّهم في الدَّهر أعلامُ اليَقِينْ

* * *

في أسرارِ الشَّريعة

لم يتحدَّث إقبال فقط عن أسرار العبادات وحكمة الدِّين فيها ، ولكنَّه من جهةٍ أخرى يحاول أن يكشف أسرار الحياة في المال ، وفي مجال التعامل به ، وما انتهجه المادِّيُّون من الأساليب في هذا السبيل ، فيقول للمؤمن : إنِّي وعيت

عن جلال الدِّين الرُّومي حكمة نبهني فيها إلى أمرٍ جَلَل ، ما كِدْتُ أتأمَّلُها حتى أصابني المقيمُ المقعدُ من التفكير ، فيقول :

حِكْمةٌ قد وعيتها عن جلال الدِّينِ فيها أدركتُ معنى الجَلالِ
أنَّ حِفْظَ الأموالِ مِنْ أجْلِ حفظ الدِّين زادٌ وعدَّةٌ للنِّضال
قد أبانَ الرَّسُولُ أنَّ صلاحَ المالِ يزكو بهِ[1] صلاحُ الرِّجال
إنْ يَكُنْ همُّك الغِنَى لم تكنْ له عبداً بَلْ أنْتَ عبدُ المال

* * *

كمْ شَهِدنا الإصلاح من فارغي الأيدي وأهلِ الخَصاصة المُعْدَمين
كمْ وَجَدْنا الكسادَ منْ خازِن المالِ وأهْلِ الأهواءِ والمُتْرَفين
هُمْ يَضيقون بالعدالةِ في الأرضِ ليَقْضُوا حياتَهم ناعمين
لا يخافونَ في المَصير حساباً بلْ يخافُون غَضْبَةَ الثَّائرين

* * *

يأكلون التراثَ جَمْعاً وبُخْلا ثُمَّ هم يأكلونَ خُبْزَ الأجير
وتزيد المأساة رُعْباً وهولا عندما يَسْرِقُون حقَّ الفقير
يقفُ العاملُ المُسِنُّ[2] لديهم خاشعَ الطَّرف خافضَ التَّعبير
يصلُ الليل بالنَّهار أنيناً دُونَ جَدْوىٰ[3] في بؤسِ عيشٍ مرير

* * *

ليس في بيته الرغيفُ ولا يسْتُرُ مِنْ عُرْيه سوى الأسمالِ[4]
يبتني القَصْرَ وهو يلتمِسُ الأكواخَ بين الرُّبوعِ والأطلالِ

---

(١) يَزْكُو به : يزيد به .
(٢) المُسِنُّ : كبير السِّن .
(٣) دُون جَدْوى : دونَ فائدة .
(٤) الأسمال : الأثواب الخَلِقَة البالية .

نـال ربـح الـدَّاريـن مـنْ جَعَـلَ المَـالَ سبيـلاً إلـى كـريـمِ الفِعـالِ
هـم حيـارى لا يَنْظـرون بنـورِ الله بـلْ يَنْظُـرون رأسَ المـالِ

* * *

يستـوي الحـلُّ والحـرامُ لـدى القَـوْم وأيـن الـدُّجـى مِـنَ الأنْـوَارِ
فـأساليبُهـم مخـادَعـة الخلـق وتعميـرهـم خـرابُ الـدِّيـارِ
دولـةٌ تعتـدي علـى دولـةٍ ظلمـاً وقطـر يبغـي علـى أقطـارِ
كـادحٌ يـزرعُ الحقـولَ فيـأتـي غيـرُه عـاجـلاً لجَنْـي الثمـارِ

* * *

مِـنْ صميـم الحيـاة . مـنْ فطـرةِ الله ، مـنْ القَلْـبِ ، مـنْ لقـاء الضَّميـرِ
يشـرقُ الـدِّيـنُ بـالهـدايـة والـرُّشـد كمـا يشـرقُ الضُّحـى بـالنُّـورِ
فلـو أنْ الحـرام يبـدو حـرمـاً يَحْجُـزُ النَّـاسَ عنـه وعـيُ الضَّميـرِ
يصبـح العـدلُ شـامـلاً كـلَّ أرضٍ فـي الحيـاة الـدُّنيـا ليـوم النُّشـورِ

* * *

حكمـةُ الـدِّيـن أن تُسَلِّـم للشَّـرْعِ وتـرضـى بكـلِّ حكـمٍ قَضَـاهُ
مِـنْ ضميـر الـرَّسـولِ أينـع هـذا الـدِّيـن فـي غَـرْسِـه وطـابَ جَنـاهُ
إنَّ هجـر الحبيـب يستلـبُ اللـبَّ ويُـذكـي فـي القلـب نـارَ جَـواهُ
لـو أزيـل الحِجَـاب لـم تبـقَ حيـاً خـلَّ أمـر الـوصـال واطلـب رِضـاهُ

* * *

عِـشْ بـأحكـامـه تَـرَ العَيْـشَ صفـواً ورخـــاءً أو نضـــرةً ونعيمـــا
وأطـع أمْـرهُ تُطِعْـك البـرايـا وتـرى الأمـنَ حيـث كُنْـتَ مُقيمـا
قـد حبـاك الإلـه أحسـنَ تقـويـم لتحيـا خَلْقَـاً سـويـاً كـريمـا
إنَّ إرْثَ[1] الخليـل إيمـانُـه الصَّـادقُ فـاحفـظْ ميـراثَ إبـراهيمـا

---

(١) إرْث : الميراث أو الأمر القديم توارثه الآخرُ عن الأول ، كما جاء في الحديث : =

كـلُّ قَلْـبٍ لـه مـن الحـقِّ نـورٌ ولـه مـن هـدي النَّبـيِّ نصيـبُ
لا يُشـابُ اليقيـنُ[1] منـه بـريـبٍ وهـو مـنْ جبـريـلَ الأمينِ قـريـبُ
يـا مقيمـاً فـي حُجْـرةِ الـدَّا ر يتلـو وهـو عمَّـا يتلـوه نـاء
قُـمْ وأنـذر بـه الخـلائـقَ طـرَّاً تَجِـدِ الكـونَ كلَّـه يَسْتجيـبُ

***

وتقبَّـل أوامـرَ الـدِّيـن بـالـرَّغبـة والشَّـوق والـرِّضـا كـلَّ وقـتٍ وآنِ
كـلُّ فـرضٍ تقضيـه جبـراً وقهـراً لا تـرى فيـه نَشْـوةَ الإيمـانِ
حكمـةُ الـدِّيـن فـي العـدالـة والحـبِّ ليسـت فـي البُغْـضِ والطُّغيـانِ
وبـأنْ لا يحتـاجَ فـي الأرض إنسـانٌ ليحظـى بـالـرِّزْقِ مِـنْ إنسـانِ

***

قَـدْ خَبَـرْتُ الـدُّعـاة فـي هـذه الأيـامِ والمُـدَّعيـن لـلإلهـامِ
أطفـؤوا جـذوةَ الإرادةِ فـي الشَّعْـبِ وزادوه حَيْـرَةً فـي الظَّـلامِ
وأصـاغـوا التـأويـل فـي كـلِّ نـصٍّ حيلـةً للغِنـى وجَمْـعِ الحُطـام
لا أرى فـي منـابـر القـوم إلا سلَّـة الكعـك أو خـوان الطَّعـام

***

كـم أطـالـوا الجـدالَ فـي العقـل والنقـل وأفنـوا أعمـارهـم فـي المِـراءِ
أيُّ بـابٍ مـن الهـدايـة يُـرْجـى مـنْ كليـمٍ[2] بـلا يـدٍ بيضـاء
أيُّ أمـرٍ يفيـده مـنْ كـلامٍ فـي صبـاحٍ مـرددٌ ومسـاءِ
صـاحـب الحـق أنـت فـاطلبـه بـالسَّعْـيِ ولا تنتظـره بـالإعطـاءِ

***

= « إنكم على إرثٍ من إرث أبيكم إبراهيم » .

(١) لا يُشاب : لا يختلّط .

(٢) كليم : يريد به الشاعر سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام .

دمعة على افتراق
الشعب في شبه القارة

نظم إقبال هذا المثنوي في العهد الأخير من حياته سنة ١٩٣٦ ميلادية ، وكانت عوامل الفرقة قد بلغت حدَّتها ، وضعف الأمل في جمع الصفوف بعد أن قامت وَحْدةٌ وقتية بين الهنادك والمسلمين تعمل على إبعاد المستعمر البريطاني الذي حلَّ منذ سنين طويلة في شبه القارة ، وإجلائه عن البلاد ، إلَّا أنَّ المستعمر لم يفقد أمله الدائب في بث عوامل الفرقة بينهم ، كما حدث منه أدوار متعددة من تاريخ كفاح البلاد من أجل الحرية .

كان المستعمرون الإنجليز يثيرون حرباً ضروساً بين طوائف الشعب باسم الدِّين تارةً وباسم اللغة تارةً أخرى ، يحرِّضون فرقة مسلمة على أخرى ، وجماعة السيخ على جماعة المسلمين ، ويطلقون في حربهم أيدي السَّفاكين على الأبرياء الآمنين ، ويزجون بالمجاهدين في أعماق السجون والمعتقلات ، جرياً على معهود سياستهم (فرق تسد) .

وقد نظم إقبال هذه القصيدة من كتابه (والآن ماذا نصنع يا أمم الشرق) في ظروف ما قبل التقسيم . ولكنَّ المسلمين فيما بعد كانوا قد وصلوا إلى حالة وجدوا فيها أنفسهم مضطرين إلى توحيد جبهتهم للمطالبة بالتقسيم الذي انتهى إلى قيام باكستان دولة مستقلة على مسرح التاريخ حفاظاً على كيان المسلمين وحقوقهم المشروعة .

وتعد هذه القصيدة من أجمل القصائد في مثنوي إقبال ، رغم ما حوته من بعض المبالغات ، وفيها يحضُّ المسلمين على ثورةٍ عارمةٍ بأسلوبٍ دينيٍّ مثير ، وأن تكون لهم القلوب الواعية ، والآمال النابضة بمعاني الحرية والانطلاق .

يوجه إقبال خطابه إلى جميع سكان شبه القارة الهندية قائلاً :

همـــالايـــا ونهـــرَ الكنـــج إنِّـــي أرى صُـــوَرَ الحيـــاةِ بِغَيْـــرِ معنـــى
فلـــم أدركْ لهـــا فـــي الـــذوق رأيـــاً ولـــم أعـــرفْ لهـــا فـــي الحـــسِّ لـــونـــا

* * *

شعـــوبُ الشَّـــرق والغـــرب استقلَّـــت وضـــاقَ بنـــا علـــى الأرضِ الفضـــاءُ
فلـــلأغيـــار ثـــروتُنـــا متـــاعٌ وَمِـــن لبنـــاتنـــا لهـــم البِنـــاءُ

* * *

وأيـــن حيـــاتُنـــا والغَيْـــرُ فيهـــا يَصُـــوْلُ كمـــا يشـــاءُ ويستطيـــلُ
وليـــس النَّـــوْمُ مـــا صِـــرْنـــا إليـــه فـــذاكَ المـــوتُ لا النَّـــومُ الثَّقيـــلُ

* * *

وإنَّ بـــذورَ هـــذا المـــوت جـــاءت مـــن الأعمـــاقِ مُنْـــذُ الابتـــداءِ
ومُنْـذُ المهـدِ كـان القـومُ صَـرْعَـى[1] وهـذا المـوتُ ليـس مـن السَّمـاء

* * *

وليـــس فقيـــدُ هـــذا المـــوتِ أهـــلاً لغُسْـــلٍ أو لقَبْـــرٍ أو بُكـــاء
ولا شـــقَّ الثِّيـــابِ عليـــه حـــزنـــاً ولا سعـــيِ الـــوفـــودِ إلـــى عَـــزَاء

* * *

جهنمُـــه ســـوى مـــا قـــد عـــرفنـــا فليـــسَ لهـــا إلـــى الفَلَـــكِ انتســـابُ
ويـــومُ حســـابِ كـــلِّ الخلـــقِ يـــأتـــي بـــلا عمـــلٍ فليـــس لـــه حِسَـــابُ

* * *

حصـــادُ الـــزَّارعيـــن غـــداً وهـــذا بـــلا زرعٍ فمـــن أيـــن الحَصَـــادُ
ومـــدَّة عمـــرِه فـــي الـــدَّهـــر يـــومٌ وكـــلُّ حيـــاتِـــه يـــومٌ مُعـــادُ

* * *

---

(١) صَرْعَى ، جمع الصَّريع : وهو المصروع . يقال : بات صريع الكأس ـ والمجون .

وأيَّـةُ أمَّـةٍ تـرجـو الأمـانـي بـلا جَهْـدٍ وتمضـي فـي رُكـودِ[1]
يكـونُ مصيـرُهـا عـدمـاً ومحـواً وينسـىٰ نَقْشَهـا سِفْـرُ الـوُجـود

* * *

وكَـمْ فِتَـنٍ تمـادى[2] الغـربُ فيهـا وأحْكَـمَ حـولَهـا السِّحْـرَ المبينـا
فمـا أبقـى علـى الكفـارِ كفـراً ولا أبقـى لأهـلِ الـدِّيـن دينـا

* * *

وأغْطَـشَ ليلهـا الـدَّاجي[3] ظـلامـاً فمـا تـدري الشَّـرابَ مـن السَّـرابِ
هـي الغَمَـرات مـا منهـا نجـاةٌ ولا حَـلٌّ بِغَيْـرِ الانقـلابِ

* * *

فيـا مَـنْ هـامَ بـالـدُّنيـا متـاعـاً وأصبـحَ همُّـه شبعـاً وريَّـا[4]
تَطْلُـبُ فـي حُضُـورِ الحـقِّ قلبـاً وفيَّـاً صـادقَ الإيمـانِ حيَّـا

* * *

فهـذا القلـبُ للـدُّنيـا سـراجٌ لـه أممُ الخليقـةِ فـي انتظـار
وهـذا القلـبُ مَعْـدِنُـه تـرابٌ وَجَـوْهَـرُه فريـدٌ فـي الـدَّراري[5]

* * *

يفـوقُ السَّبْعَـة الأفـلاك قَـدْراً بِهِمَّتِـه ولا يـألـو رُقِيَّـا

---

(١) الرُّكود : الهدوء ، والسُّكون .
(٢) تَمَادى : لَجَّ ودام عليه .
(٣) ليلها الدَّاجي ، أي : حالك .
(٤) رِيَّاً : مصدر رَوِيَ ، أي : شَرِبَ .
(٥) الدَّراريّ ، جمع الدُّرِيّ : نسبة إلى الدُّر في حسنه وبهائه .

يقيمُ على الثَّرى وله أمانٌ إلى العلياء أدناها الثُّرَيَّا[1]

* * *

وفي حربِ ضروسٍ[2] كلَّ حينٍ مع التَّاريخ مُتَّصل النِّضالِ
بِضَرْبَتِهِ الجبالُ تصيرُ عِهْناً وَتُرْهِبُه الضراغِمُ في الجِبَالِ

* * *

ترى لِشعورِه المشبوبِ ناراً تُوْقَدُ مِنْ حرارَتها ذُكاءُ
له ممَّا سوى التنورِ خبزٌ ومِنْ غَيْرِ الطَّعامِ له غِذَاءُ

* * *

حضورُ الحقِّ يملؤه يقيناً فمنه الخوفُ مَحْضاً والرَّجاء
شهودُ الحقِّ إنْ هُوَ غابَ عنه فليسَ له على الدُّنيا بَقَاءُ

* * *

طيف الجلواتِ والخلوات طُرَّاً يضيء الكونَ بالرأي المُنيرِ
وماللعِشْق في سُكْرٍ وَصَحْوٍ دليلٌ غَيْرَ أوابٍ فَقِيْرِ

* * *

فصاحبْ منْ له قلبٌ عظيمٌ لعلَّك تدركُ الأمرَ العظيما
وُلِدْتَ على مهاد الذُّلِّ عبداً فجاهدْ ثمَّ مُتْ حُراً كريما

* * *

---

(١) الثُّريَّا : مجموعة منّ النجوم .
(٢) حَرْب ضَروس ، أي : شديدة مُهلكة .

السِّياسَةُ الحاضِرة

إنَّ إقبالًا كشف الأقنعة المزيَّفة عن وَجْه السِّياسة الغربية ، ووجَّه أمم الشَّرق إلى تجنُّب أخطارِ دُوَلِ الغَرب وسياستها ، وقدَّم حقائقَ وصوراً عن التَّدهورِ الخُلقي في قادة المسلمين والموجهين لشعوبهم لاسيَّما في شبه القارة الهندية الَّتي كتب على أرضها هذه المنظومة الكبرى قبل الاستقلال . ومن أروع ما نشهده من روائع هذه المنظومة ذلكَ الاستدراكُ العجيب الذي صرَّح فيه إقبالُ بأنَّ الإنسانَ المستعبدَ الذَّليل يكاد يفقد حقَّه في أن يذكر اسم النَّبيِّ ﷺ على لسانه بالصَّلاة والتسليم ، وألمح إلى الحالة المؤسفة التي شهدها في المجتمع ، ولاسيما في شبه القارَّة ، وبيَّن بجلاءٍ أنَّ العبوديَّة والذِّلَّة لا تلتقيان مع الإيمان بالله في قلبِ إنسان ، ومنْ ثمَّ يقول إقبال :

صَوَّرَ الغاصبُ عَدْلًا ظُلْمَهُ ... ما هو التَّفسير للعَدْلِ الجَديد
زادَ في التَّحرير معنىً أنَّه ... يُحْكِمُ القَيْدَ لتحريرِ العَبِيْد

* * *

قال للطَّيْرِ إذا رُمْتَ الأمان ... فاتَّخِذ في منزلِ الصَّيادِ وَكْرا
ليس في الأجواء للطَّير مكان ... لا ولا تأمنُ في الصَّحراء نَسْرا

* * *

حِيْنَ يلقي الحَبَّ في أشْراكِه ... يَسْقُطُ الطَّيْرُ ويهوي ثَمِلا[1]
ويَغيبُ الرُّشْدُ عن إدْراكِه ... سَاعَةً يَفْقدُ فيها الأملا

* * *

سَدِّدِ الرأيَ وحاذرْ كَيْدَهُ ... كلُّ ما يأتي به زُوْرٌ ومَيْن[2]

---

(١) الثمل : النشوان مّن السكر .
(٢) المَيْن : الكذِبُ .

إنْ سقَاكَ المَاءَ فاتْرُكْ وِرْدَهُ وَلْتَمُتْ ظمآنَ حُرّاً كالحُسين

* * *

لا تُصَدِّقْ مِنْهُ ما تَسْمَعُهُ فَهُوَ تَخْديرٌ مبيدٌ للبَشَرْ
واحذَرِ الكُحْلَ الذي يَصْنَعُه إنَّه الكُحْلُ الذي يُعمي البَصَرْ

* * *

ضاقَ صدري بأميرِ القَافلة لَيْسَ فيه وَمْضةٌ[1] مِنْ لا إلَه
عابدُ المالِ يحبُّ العاجلة عَبْدُ جسمٍ عَبْدُ نفسٍ عَبْدُ جاه

* * *

كان بالتَّوحيد مرفوعَ العلم يَنشُدُ المَجْدَ طريفاً وَتَلِيدا
ذلكَ المولودُ في ظلِّ الحرم ما له أصْبَحَ لِلْغَيْرِ مُريدا

* * *

أيْنَ مِنْ كانَ بهِمْ يسترشد كلُّ مرتابٍ فيحظَى باليَقين
وترى الأرضَ إذا ما سَجدُوا زُلْزِلَتْ مِنْ جَبَهاتِ السَّاجدين

* * *

في دويِّ الهَوْلِ كانوا يُعْلِنون تَحْتَ ظلِّ السَّيْفِ تَوْحِيدُ الإلَه
بِمِدَادٍ مِنْ دماءٍ يَكتبون ربُّنا اللهُ ولا نخشى سِوَاه

* * *

أينَ ذاكَ الشَّوْقُ والقَلْبُ الصَّبُور ومرايا البَاقياتِ الصَّالِحَات
قد طَوَتْها في تواليها العُصور وتوارتْ في الليالي الخَاليات

* * *

---

(١) وَمْضَة : لمعة خفيفة .

ـذْ بَلَـوْتُ الـرِّقَّ[1] مُنْـذُ الابتـداء لَـمْ يكـنْ مهـدي فـي أرضِ الحَـرَمِ
ـنْ رسـولِ الله يَعْـرونـي الحَيَـاء[2] حِيْـنَ يَـدْعُـو بـاسمِـه الغـالـي فَمِـي

* * *

ـكَ قلـبٌ ومـع القَلْـبِ ضميـر أمْ غـدا صـدرُك لـلأصنـام دَيْـرا[3]
ـنْـتَ للغَـاصـبِ محكـومٌ أسيـر تَحْتَ حُكْمِ الغَيْرِ لن تَصْنَعَ خَيْرا

* * *

ـدَّعـي الحُـبَّ لخيـر الأنبيـاء أكْـذَبُ الأقـوالِ مـا لَـمْ يَبْـدُ فِعْـلا
ـإذ لَـمْ يَتبَـعِ القـولَ اقتـداء لَـمْ يكـن لِلْحُـبِّ أوْ لِلْقُـرْبِ أهـلا

* * *

ـذَّة الإيمـانِ عنـد المـؤمنيـن قَـلَّ أنْ يُـدْرِكَهـا عبـدٌ ذَليـل
ـسلـمٌ مُسْتَسْلـمٌ للطَّـامعيـن آزريٌّ[4] حـادَ عـن ديـن الخَليـل

* * *

ـصلـواتُ الحـرِّ بعـثٌ للشُّعـور فهـي مِعْـراجٌ إلـى العَيْـشِ الكَـريـم
ـرصـلاةُ المَـرْءِ فـي غيـر حُضُـور عـادةٌ جـوفـاءُ فـي رسـمٍ قَـدِيْـم

* * *

ـنَّ لـلأحـرار فـي العِيْـدِ السَّعيـد مَظْهَـرُ العِـزَّة فـي دُنيـا وَدِيـن
ـولـدى الأسـرىٰ وفـي عيـشِ العَبِيْـد يُصْبِـحُ العِيْـدُ هَجْـوَ المُـؤْمنيـن

* * *

---

١) الرِّق : العُبوديَّة .
٢) يعروني الحياءُ : يُصيبني الحياءُ .
٣) دَيْراً ، مصدر من دَارَ يدورُ ، أي : طَافَ حولَه .
٤) آزريٌّ : نسبة إلى آزر والد سيِّدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

إلى الأمة العربية

خصَّص محمد إقبال قصيدةً من أبدع قصائده للحديث مع الأمَّة العربية ، ليسجل فيها فضلَها وسَبْقها في حمل الرسالة الإسلاميَّة ، والأخذ بيد الإنسانيَّة ، وافتتاحها لتاريخٍ جديدٍ وفجرٍ سعيد ، وسرعان ما ينتقل إلى موضعه الحبيب الأثير ، فيذكر الشخصية الحبيبة التي كانت على يدها نهضة هذه الأمَّة وسعادتها ، بل نهضة الإنسانية وسعادتها ، فيرسلُ على عادته النفسَ على سجيتها ، ويعطي القلب والعاطفة زمامَه ، ويسترسلُ في الحديث ، فيقول :

« أيتها الأمة العربية ! التي كتب الله لباديتها وصحرائها الخلود ، مَنِ الذي سَمِعَ العالم منه نداء « لا قيصر ولا كسرى » لأول مرة في التاريخ[1] ، ومنِ الذي أكرمه الله بالسَّبْقِ إلى قراءة القرآن ؟ مَنِ الذي أطلعه على سرِّ التوحيد ، فنادى بأعلى صوته : « لا إله إلا الله » ، وما هي البقعة التي اشتعل فيها هذا السراج الذي أضاء به العالم ؟ هل العلم والحكمة إلا فتاتُ مائدتكم ، وهل قوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] إلا وصف حالكم ، إنَّ نَفَسَ ذلك الأمي أعاد على هذه الصحراء الخِصْبَ والنمو ، فأنبتت الأزهار والرياحين ، إنَّ الحرية نشأت في أحضانه ، وإنَّ حاضرَ الشعوب ليس إلا وليد أمسِه ، إنَّ الجسد البشري كان بلا قلبٍ وروح ، فأعطاه القلب والرُّوح ، وكشف اللثام عن جمال وجهه ، إنَّه حطَّم كلَّ صنمٍ قديم ، وأفاض الحياة على غصنٍ ذاوٍ من أغصان

---

(١) يشير إلى الحديث المشهور : « إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده » .

العلوم والمدنية ، وأنجب أبطالاً وقادةً مؤمنين ، أقاموا المعارك الفاصلة بين الحق والباطل ، فتارةً يدوّي الأذان في ساحة الحرب ، وتارةً يتجلّى الأذان بقراءة « الصافات »[1] بين صليل السيوفِ وصهيلِ الخيول ، إنَّ سيف البطل المغوار كصلاح الدين الأيوبي ، ونظرة الزاهد الأواب كأبي يزيد البسطامي مفتاحان لكنوز الدُّنيا والآخرة .

إنَّ العقل والقلب يجتمعان تحت لوائه ، وإنَّ ذكرَ جلال الدين الرومي ، وفكرَ فخر الدين الرازي يلتجئان تحت ردائه ، إنَّ العلم ، والحكمة ، والشرع ، والدين ، والملك والإدارة ، ولوعة القلوب مقتبسةٌ من نوره ، وليست « الحمراء » في غرناطة ، وقصر « التاج » في آكره[2] ، اللذان خضع لجمالهما وجلالهما كبار الفنانين الناقدين ، وعظماء العباد الزّاهدين ، ليس إلا صدقةً من صدقات بعثته ، ومظهراً من مظاهر عبقرية أمته ، إنَّ بعض مظاهره تجلّى في سموِّ ذوق أمته ، وسلامة تفكيرها ، وجمال فنها ، أما باطنه فقد تقاصر عن إدراكه كبارُ العارفين .

لقد كان الإنسان حفنةً من تراب ، وقبضةً من أشلاءٍ وعظام ، لا يدري ما الكتاب ، ولا الإيمان ، فعرَّفه بالعلم والإيمان ، وأذاقه لذة العبادة والإحسان ، فجزاه الله عن الإنسانية أفضل الجزاء » .

يذكِّر إقبال الأمة العربية عهدها القديم قبل البعثة حين كان نظام العرب فوضى ، يعيشون كالبهائم التي لا همَّ لها في الحياة إلا الأكل والشرب ، وكان مَثَلُهم كمَثَل السيف المفلول يتراءى للناظر لامعاً قاطعاً ، ولكن ليست له ظُبَّة فهو لا يُنْتفعُ به ، فيقول الشاعر :

---

(١) يشير إلى سورة الصافات .

(٢) يعني « التاج محل » الذي بناه الإمبراطور المغولي « شاه جهان » ، ويعتبر آية في الفن المعماري ، ويأتي إليه الجوالون والزائرون من أقاصي البلاد .

« أيها العرب قد منَّ الله عليكم ؛ إذْ جعلكم مثل السيف البتار أو أحَدَّ منه ، وكنتم فيما قبل ترعون الإبل في الصَّحراء ، تركبون عليها ، وتظعنون بها ، ثم انعكست الآية ، فسخر الله لكم المقادير ، فضلاً عن الإبل ، فأصبحتم من مالكي أعنَّتها ، فلو أقسمتم على الله لأبرَّكم ، وهنالك دوت تكبيراتُكم وصلواتُكم ، وزمزمت جلبة حروبكم ومغازيكم بين الخافِقَيْن ، فارتجَّ بها ما بين الشرق والغرب ، فما أحسن تلكَ المُغامرات ، وما أجملَ تلك الغزوات » .

وبعدما يمدحُهم الشَّاعر ، ويذكرُ حماسَتهم الإسلامية ، وغضبتهم المضرية في الله ورسوله ، ويبدي فرحَه وسروره ، يقف برهة ، ويملكه الحزن والتألم بما يرى من خمود العرب بعد النشاط ، والإحجام بعد الإقدام ، والفُرْقة بعد الوَحْدَة ، والعبودية بعد السيادة ، والاتباع بعد القيادة ، ويقبل إليهم مخاطباً معاتباً ، ويقول :

« أسفاً على هذا الخمود والجمود ، أيها العرب ! ألا ترون إلى الأمم الأخرى ، كيف تقدَّمت وسبقت! أما أنتم فما قَدَّرْتُم قَدْرَ هذه الصحراء التي نشأتم فيها ، وهذه الحرية التي ورثتموها ، كنتم أمَّةً واحدةً ، أمَّةَ الإسلام ، فصرتم اليوم أمماً ، وكنتم حزباً واحداً ، حزب الله ، فأصبحتم أحزاباً ، لقد فرقتم جمعَكم ، ومزَّقتم شملكم ، وانقسمتم على أنفسِكم .

اعلموا أيها السادة ! أنَّ منْ ثار على شخصيته وكرامته ، وفقد الثقة بنفسه مات ، ومُحي من الوجود ، ومن فرَّ من معسكره وانحاز إلى صفوف الأعداء ، وتطفَّل على مائدتهم ، عوقب بالهوان والشَّقاء ، والطَّرْد والجلاء ، ألا إنه لم يجنِ عدوٌّ على عدوٍّ مثل ما جنيتم أنتم على أنفسكم ، ولم يُسيء أحدٌ إلى أحدٍ إساءتكم إلى أمَّتكم ، إنكم آذيتم روحَ رسول الله ﷺ بصنيعكم ، فهي متألمةٌ متوجِّعةٌ شاكيةٌ مستغيثة » .

الشاعر عارف بمكائد الإفرنج ، وما لديهم من سهامٍ مسمومة ، وحبائلَ

منصوبة ، وهو شديدُ المعرفة بهم ، وقد عاش فيهم ، ودرَسهم وَخَبرهُم ، فهو يتألَّم إذ يرى في الأمة العربية من يُحْسنُ الظنَّ بهم ، ويعتمد عليهم في بناء صرح الحياة ، وفضِّ المشكلات ، فيرسل صيحته ، وينذرهم من المصير المظلم المؤلم ، ويقول :

« مهلاً أيها الغافلون ! إيَّاكم والركونَ إلى الإفرنج ، والاعتمادَ عليهم ، ارفعوا رؤوسكم ، وانظروا إلى الفتن الكامنة في مطاوي ثيابهم ، ألا إنه لا حيلةَ لكم ولا وزر إلا أن تطردوهم عن منهلكم ، وتذودوهم عن حوضكم ، إنَّ حكمة الغرب قد أسرت الأمم ، وتركتها سليبة حزينةً لا تملك شيئاً ، إنَّها مزقت وَحْدَة العرب ، واقتسمت تراثهم ، إنَّ العرب لما وقعوا في حبالهم تنكَّر لهم كلُّ شيء ، وقسا عليهم هذا الكون ، ولم يَجِدوا من يرثي لهم ، ويرفُق بهم ، وضاقت عليهم الأرض بما رَحُبَتْ وضاقت عليهم أنفسهم » .

وبعدما يفيض الشاعر في بيان شرور الإفرنج ومكائدهم ، ويحذِّر العرب من الانسياق إليهم والوقوع في شركهم يُقْبل إلى تشجيع العرب والترفيه عنهم ، ويقول :

« إنَّ الله قد رزقكم البصيرة النافذة ، ولا تزالُ فيكم الشرارةُ كامنةً ، فقوموا أيها العرب! وردُّوا فيكم روحَ عمرَ بنِ الخطاب مرَّةً أخرى ، إنَّ منبع القوة ومصدرها هو الدين ، منه يستمد المؤمن العزم واليقين ، وما دامت ضمائركم أمينةً للسرِّ الإلهي ، فيا عمارَ البادية ! أنتم الحراسُ للدِّين ، وأمناءُ الله في العالمين .

إنَّ غريزتكم العربية الإسلامية ميزانٌ للخيرِ والشرِّ ، وأنتم ورثةُ الأرض ، إذا تألَّق نجمكم في آفاق السماء أفَلتْ نجومُ الآخرين ، وَطُوِيَ بساطُهم ، لن تسعهم الصحراء والفيافي ، فاضربوا خيمتكم في وجودكم ، الذي يسع الآفاق ، كونوا أسرع من العاصفة ، وأقوى من السَّيل ، حتى تُسْرِعَ ركائبكم في مضمار الحياة ، وتَسْبِقَ الريح .

ليت شعري ! مَنْ خلَّفكم في الحياة ؟ إنَّ العصر الحاضر وليدُ نشاطكم ، وكفاحكم ، وصنيعُ جهادِكم ودعوتِكم ، وما زلتم سادته ، وولاتَه حتى أفْلَتَ زمامه منكم ، فتبناه الغربُ وامتلكه ، ومن ذلك اليوم فَقَدَ هذا العصر وهذا المجتمعُ الإنسانيُّ شرفه وكرامته ، وأصبح تحت ولايته منافقاً خليعاً ، ثائراً على الدِّين .

فيا رجلَ البادية ! ويا سيِّدَ الصَّحراء ! عُدْ إلى قوَّتِك وعزَّتك ، وامتلك ناصية الأيام ، وخذ عِنان التاريخ ، وخذ قافلةَ البشرية إلى الغاية المثلى » .

وهنا نبذةٌ أخرى من أبياته يشكو فيها إلى روح رسول الله ﷺ ضَيَاعَ الأمة الإسلامية ، وانطفاءَ شعلةِ الحياةِ والإيمانِ في نفوس العرب ، ويشكو وَحْدَتَهُ وغربتَه في هذا المجتمع الإسلامي البارد الجامد ، ويناجيه مناجاةَ منْ قام بين يديه ، وأذِنَ له في الكلام ، ويقول :

« لقد تَشَتَّتَ شَمْلُ أمَّتك يا محمد ! يا رسولَ الله ، فإلى أين يلجأ المسلم الحزين ، وإلى من يأوي ؟ لقد سكن بحر العرب المضطرب المائج ، وفقدت الأمة العربية ذلك اللوع ، وذلك القلق ، الذي عُرفت به ، فإلى من أشكو ألمي ، وأينَ أجدُ من يساعدني على آلامي وأحزاني ؟ وماذا يفعل حادي أمتك ، وكيف يقطع الطريق الشاسع ، ويطوي السَّفر البعيد في هذه الجبال والمَهامِه ، وقد ضلَّ سبيله ، وفقد زاده ، وانقطع عن الركب ، بالله ! قل لي ماذا يصنع حاملُ دعوتك ، المؤمنُ برسالتك ، وأين يجدُ زملاءَه ورُفْقَته ؟ » .

ويؤلم الشاعر أن يرى العرب لا يزالون ينظرونَ إلى الأوربيينَ الإنجليزِ والأمريكيين كأصدقاءٍ مخلصين ، وأعوانٍ مُنجدين يحلُّون لهم مشكلةَ اللاجئين ، ويردُّون إليهم أرضَ فلسطين ، مع أنهم لا يزالون تحت سيطرة اليهود ونفوذهم السياسيِّ والاقتصاديِّ والصَّحافيِّ ، يقول :

« أنا أعلم جيداً يا إخوتي العرب ! أنَّ النار التي شَغَلَتِ الزَّمان ، وبَهَرتِ

التاريخ ، لم تزلْ ولا تزالُ تشتعلُ في وجودكم ، صدِّقوا أيها السادة ! إنه لا دواء لكم في جنيف ، ولا في لندن ، لأنكم تعلمون أنَّ اليهود لا يزالون يتحكَّمون في سياسة أوربة ، ولا يزالون يملكون زمامها ، إنَّ الأمم لا تذوقُ طعم الحرية والاستقلال حتى تربي فيها الشخصية والاعتداد بالنفس ، وتعرفُ لذة الظهور » .

وأخيراً يقول كلمةً صريحةً مركزةً بليغةً مع تلطُّفٍ واعتذارٍ :

« معذرةً يا عظماء العرب ! لقد أراد هذا الهنديُّ[1] أن يخاطبكم ، ويقولَ لكم كلمةً صريحةً ، فلا تقولوا أيها الكرام : هندي ، ونصيحةً للعرب ؟ إنَّكم كنتم يا معشر العرب ! أسبقَ الأمم إلى معرفة حقيقة هذا الدِّين ، وإنه لا يتمُّ الاتصال بمحمد ﷺ إلا بانقطاعٍ عن « أبي لهب » ، وإنَّه لا يصح الإيمان بالله إلا بالكفر بالطَّاغوت ، كذلك لا تتمُّ الفِكْرةُ الإسلامية إلا بإنكار القوميات ، والوطنيات ، والفلسفات المادية ، إنَّ العالم العربيَّ أيها السادة ! لا يتكوَّن ، ولا يظهر إلى الوجود بالثغور والحدود ، وإنما يقومُ على أساس هذا الدِّين الإسلاميِّ وعلى الصلة بمحمد ﷺ »[2] .

* * *

وإليك هذه القصيدة المُصاغة شعراً بالعربية ، يقول إقبال :

شعبَ العُروبةِ والمَجْد المُؤَثَّل[3] في ... بدوٍ وفي حَضَرٍ حتَّى ضُحى المحشر

مَنِ الَّذي حرَّرَ الدُّنيا لخالقها ... وأسْمَعَ الخَلْقَ لا كِسْرَى ولا قَيْصَر

* * *

---

(١) لا يعزبن عن البال أن محمد إقبال توفي قبل ولادة باكستان بعشر سنوات ، وقبل أن تكون هناك جنسية باكستانية .

(٢) من « روائع إقبال » للعلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي ص١٢٤ ـ ١٣٥ .

(٣) المؤثَّل : المبني الأصيل .

مـنْ قبلكُـم أبلـغَ الآيـاتِ نـاطقـةً بـوحـي مـنْ خلـق الـدُّنيـا وسـوَّاهـا
مـنْ غَيْـرُكـم رَفَـعَ المِصْبـاحَ مـؤتلقـاً وَوَحَّـــدَ الخَلْـــقَ لمَّـــا وَحَّـــدَ اللهَ

***

لـم يَطْعَـمِ النَّـاسُ إلَّا فـي مـوائـدكـم علمـاً شَهِيّـاً وتَهْـذيبـاً وعِـرْفـانـا
في شأنكم أرسلَ اللهُ الكتابَ فأصـ ـبحتُـم بنعمتـه فـي الخَيْـرِ إخـوانـا

***

منْ حوَّل البيدَ روضاً والحَصى دُرراً وأنبتَ الوَرْدَ في الصَّحراء لِلْعَرَبِ
أستغفـرُ الله مـا غَيْـرُ النبـيِّ بهـا أغْنَتْ مكارمُه فيها عَنِ السُّحُبِ[1]

***

فكلُّ معبودٍ قديمٍ في الشعوب هوى بعـــزمـــه ســـاجـــداً لله إكبـــارا
وكـلُّ غصـنٍ هشيـمٍ مـن نـداه غـدا يُجَـدِّدُ الحُســـن أوراقـــاً ونـــوَّارا

***

واهـاً لهـا جـذبـات طـالمـا حَفَـزَتْ منَّـا الخُطـا وأثـارت للعـلا هممـا
قـد أبـدلتنـا الليـالـي مـن سعـادتهـا يـأسـاً مـريـراً ومـنْ أنـوارِهـا ظُلَمـا

***

كـلُّ الشُّعـوب أعـدَّت مـنْ مـواردهـا حِصْنَ الرَّخاء وصارتْ للمُنى قَدَما
وملء صحرائكم لو تعلمون غنىً وثـــورةٌ وكنـــوزٌ تُغْـــدِقُ النِّعمـــا

***

كيفَ انقضى حفْلكم وانفضَّ سامرُكم[2] وكـان بـالأمـس مِثْـلَ العَقْـدِ منتظمـا

---

(١) سُحُب ، جمع السَّحاب : هو الغيم سواء أكان فيه ماء أم لم يكن .
(٢) سَامِر : هو مَن يتحدَّث مع زميله في الليل .

تـوَحَّـدَتْ مـن قـديـمِ الـدَّهـر أمَّتُكـم ما بالُها انقسمتْ في أرضِكم أُمَمَا

* * *

قَدْ خادَعَتْكُم من المستعمرين يدٌ سُمُّ العقـارب فـي أكمـامِهـا استترا
كـمْ أهْـدروا مِـنْ شعـوبِ آدَمِيَّتَهَـا كمْ أيقظوا فتناً ، كمْ أفسدوا فِطَرا

* * *

تَـوَارَثَ العَـرَبُ الأحـرارُ وَحْـدَتَهُـم مـدى عصـورٍ وأجيـالٍ وأزمـانِ
حتـى إذا جـاء الاستعمـارُ قسَّمهـا إلـى شعـوبٍ وأقـوامٍ وأوطـانِ

* * *

اضْرِب خيامَك في دنيا وُجودك لا تَقِفْ بها عند رَسْمِ الدَّار والدِّمَنِ[1]
وادفـعْ بنـاقَتِـك الميـدانَ أسْبَـقُ مـنْ ريحِ الصَّحارى وأنْقِذْ وَحْدَةَ الوَطَنِ

* * *

يـا أيُّهـا العـربـيُّ انظـر لعصـرك فـي دنيـا يفـوزُ بهـا مـنْ أحْكَـمَ النَّظـرا
بـالسِّلْـمِ بـالعَـدْلِ تبنـي مـا تُـؤَمِّلـه إنْ شِئْتَ للأرضِ عُمْراناً فَكُنْ عُمَرا

* * *

تُعادُ هنا نَفْسُ هذه المنظومة في صياغةٍ أخرى ، يقول :

(١)

أمَّـةَ الصَّحـراءِ يـا شَعْـبَ الخُلـود مَـنْ سِـواكـمْ حـلَّ أغـلالَ الـوَرىٰ
أيُّ داعٍ قبلَكُـم فـي ذا الـوُجـود صـاحَ لا كسـرى هُنـا لا قيصـرا

* * *

---

(١) الدِّمَن ، جمع الدِّمنة : وهي آثار الدَّارِ .

مـنْ سِـواكـم فـي حـديـثٍ أو قـديـم أطْلَـعَ القـرآنُ صُبْحـاً للـرَّشـاد
هـاتفـاً فـي مَسْمَـعِ الكَـوْنِ العَظيـم لَيْـسَ غَيْـرَ الله ربَّـاً لِلْعبـاد

* * *

حـدِّثُـونـي اليـومَ عـن أيِّ خِـوَان قَـدَّمَ الحِكْمَـةَ قـوتـاً لِلْفَطِـنْ[1]
يـا مصـابيـحَ التَّـآخـي[2] والتَّفـانـي أنْـزَلَ اللهُ فـأصْبَحْتُـم لِمَـنْ

* * *

(٢)

وابـلٌ مِـنْ فَيْـضِ أمِّـي اللَّقَـبْ الكـريـمُ الفَـرْدُ فـي كُـلِّ الكِـرام
أنبـتَ الـزَّهـرَ بِصَحْـراءِ العَـرَبْ بَـلْ سقى في القَفْرِ بُسْتَانَ الوِئام

* * *

بِهُـدَى الحـرِّيَّـةِ العليـا أنـار فهـي روضٌ مُـوْنـقٌ مِـنْ غَـرْسِـه
يـومُهـا الحـاضـرُ فـي كـلِّ الدِّيـار لَـمْ يُنِـرْ إلَّا بـذكـر أمْسِـهِ

* * *

كـلُّ صَـدْرٍ مـن بقـايـا آدمَ صـاغَ فيـه لِلْعُـلا قلبـاً جـديـدا
مَنَـحَ الإنسـانَ مُلْـكَ العَـالـمِ بَعْـدَ مـا علَّمَـهُ النَّهْـجَ الـرَّشيـدا

* * *

كـلُّ ربٍّ غَيْـرَ خـلَّاق النَّسَـمْ صـارَ مـنْ عَـزْمَتِـهِ تَحْـتَ الثَّـرى[3]
كـلُّ غُصْـنٍ كـانَ فـي يَبْـسِ العَـدَم بِنَـداه اخْضَـرَّ حتـى أثْمَـرَا

---

(١) فَطِن : الفهم الذكيّ .
(٢) التآخي ، مصدر من تأخَّى فلاناً : اتَّخذه أخاً .
(٣) الثَّرى : التُّراب النَّدي .

(٣)

لا تسلني الآنَ عَنْ ثَوْرَتِه ... إنَّها ميدانُ بَدْرٍ وَحُنَيْن
في أبي بكرٍ وفي صاحِبِهِ ... في عليٍّ ثُمَّ في صَبْرِ الحُسَيْن

* * *

سيفُ أيوبَ وتقوى بايزيد ... فيهما مفتاحُ كَنْزِ العَالمين
أسْكَرَ الدُّنيا بجامٍ واحدٍ ... فحوىٰ الدُّنيا وضمَّ المَشْرِقَيْن

* * *

هاهنا الحكمةُ والدِّين القويم ... وهناكَ الحُكْمُ للدُّنيا يُقَام
كلُّ قلبٍ فيه لِلْمَجْدِ الصَّميم ... ثورةٌ تعلو به فَوْقَ المَرام

* * *

(٤)

لا تَقُلْ أينَ ابتكارُ المسلمين ... وسلِ الحَمْراء واشْهَدْ حُسْنَ تاج[1]
دولةٌ صارَ ملوك العَالمين ... نَحْوَها طَوْعاً يؤدُّون الخَرَاج

* * *

دولةٌ تقرأ في آياتها ... مَظْهَرَ العزَّة والمُلْكِ الحَصِين
وكنوزُ الحقِّ في طيَّاتها ... دونها حارَتْ قلوبُ العارِفين

* * *

---

(١) تاج : يُريد به الشاعر « تاج محل » الذي بناه جهانكير ، ويُعدُّ اليوم من العجائب السبعة في العالم .

(٥)

ـلِ الشُّكْـرَ إلـى غيـر انتهـاء لِنَبـيِّ الله قُـدْسـيِّ الجَنـاب[١]
ـبلِ الإيمـان نـاراً بـالعَـرَاء أوقـدِ النُّـور بكـفٍّ مـنْ تُـراب

* * *

ـاهُ الله مِـنْ عَلْيَـائـه عَـزْمَـةٌ فـلَّ بهـا سَيْـفَ الغِيَـر
ـبُ النَّـاقـة فـي صَحْـرائِـه سـارَ فيهـا راكبـاً خَيْـلَ القَـدَر

* * *

ـروا الله فـي ظـلِّ الحُـروب وصفـوفـاً تَحْـتَ ظـلِّ المَسْجِـدِ
ـةٌ دانـت لهـم فيهـا الشُّعُـوبْ وارتَقَـوْا فيهـا مكـانَ الفَـرْقَـدِ[٢]

* * *

(٦)

كأنْ لمْ تُشْرِقُوا في الكائنات بِهُـدى الإيمـانِ والنَّهـج الـرَّشيـد
يتُـم فـي ظـلامِ الحـادِثـات قيمةَ الصَّحراء في العَيْشِ الرَّغيد[٣]

* * *

ـلُّ شعـبٍ قـامَ يَبنـي نَهْضـةً وأرى بنيـانَكـم مُنْقَسمـا
ـي قـديـمِ الـدَّهـر كُنْتُـم أمَّـةً لَهْـفَ نَفْسـي كَيْـفَ صِـرْتُـم أُمَمـا

* * *

الجَنَاب : النَّاحية .

الفَرقد : نجم قريب من القطب الشمالي ثابت الموقع تقريباً ولهذا يُهتدى به . وهو المسمَّى بـ « النجم القطبي » .

الرَّغيد : العيش الطيِّب الواسع .

كـــلُّ مـــنْ أهْمَـــلَ ذاتِيَّتَـــه فهـو أولـى النَّـاسِ طُـرَّاً بـالعَنَـاء
لـنْ يـرى فـي الـدَّهْـر قـوميتـه كـلُّ مَـنْ قلَّـد عيـش الغـربـاء

***

فكِّـروا فـي عَصْـرِكـم واسْتَبِقُـوا طـالمـا كُنْتُـم جمـالًا لِلْعَصْـر
واملـؤوا الصَّحـراء عـزمـاً واخلُقـوا مـرَّةً أخـرى بهـا رُوْحَ عُمَـر

***

والآنَ ماذا نصنع يا أُمَمَ الشَّرق[1]

يندِّدُ إقبال في هذه الأبيات بمغامرات الإفرنج ، ومؤامرات الغاصبين ، وسخريتهم بحقوق الشعوب ، وتمزيقهم للدُّول الصغيرة غنائم فيما بينهم ، ولكن التطوَّر السَّريع والثوراتِ المتوالية في الشرق والغرب ، غيَّرت الكثير من الأوضاع التي يشكو منها إقبال ، يقول مخاطباً للأمَّة العربيَّة ـ بعد أن وجَّهَ إليها خطابه ـ :

تَئِنُّ الخلائقُ في الأرض طُرَّاً ... وقد سامها الغَرْبُ عَسْفاً وَجُوْرا[2]
فيا أُمَمَ الشَّرْق فيم التَّواني ... لقد آن أنْ يُصْبِحَ الشَّرْقُ حُرَّا

* * *

أكادُ أرى ثورةً في النُّفوس ... تشدُّ الحياة إلى المَجْدِ جَرَّا
مضى الليلُ وانجابَ عَهْدُ الظَّلامِ ... وبَعْدَ الدُّجى يَعْقُب الليلَ فَجْرَا

* * *

وما بَرِحَ الغَرْبُ يختالُ تِيْهاً[3] ... ويَحْتَرِفُ الكَيْدَ لِلْعَالَمِيْن
لينشرَ في الكونِ إلْحَادَهُ ... وَيُنْشىء دُنيا على غَيْرِ دِيْن

* * *

وَيَسْتَبْطِنُ الذِّئْبُ في جِلْدِ شاةٍ ... بأنيابِه العُصْلِ[4] خَلْفَ الكَمِيْن

---

(١) بهذه الجملة وضع إقبال العنوانَ لهذا الكتاب .
(٢) جَوراً : ظلماً .
(٣) تِيْهاً : ضلالاً .
(٤) العُصل : المعوجة .

أرى مشكـــــلاتِ بنـــــي آدمَ يَـزِيْـدُ بهـم شَـرُّهـا كـلَّ حِيْـن

***

فَمَـا قَـدْرُ إنسـانِ هـذا الـوُجـودِ لَـدَيْهـم سِـوى هيكـلٍ مـنْ تُـراب
تَشَكَّـلَ فـي الخلـق مـاءً وطينـاً وبنيـانُـه صـائـرٌ لِلْخَـراب

***

وقـافلـةُ الكَـوْنِ ضَلَّـتْ خُطـاهـا بحكمتهـم عَـنْ طَـريـقِ الصَّـوَابْ
لأطْمَـاعِهـم كـلُّ شـرٍّ مُبَـاحٌ ومـا للضَّميـر عليهِـمْ حِسَـابْ

***

وللحـقِّ فـي كـلِّ شـيءٍ دليـلٌ ومِـنْ نـورِه كـلُّ مـا تُبْصِـرون
وفـي كـلِّ معنـىً لـه حِكْمـةٌ يفـوزُ بـأسـرارهـا العـارِفُـون

***

إذا شَهِـدوا آيـةَ الله عـاشُـوا أبَـاةً على الضَّيـم[1] لا يَـرْهَبُـون
لقـد نظـروا فـاستبـانـوا الهُـدىٰ بـإدراكِهـم أفـلا يَنْظـرُون

***

وَلِلْمُـؤْمـنِ الحـرِّ مـنْ ربِّـه هُـدًى فـي الحيـاةِ ونـورٌ مبيـن
وفـي قلبـه لـوعـةٌ[2] واشتيـاقٌ وعَطْـفٌ على مِحْنَـةِ الآخَـريـن

***

---

(١) الضَّيْم : الظلم أو الإذلال ونحوهما ، جمعه : ضُيُوم . قال المثقِّب العبديّ :
ونحمي علىٰ الثغر المخوفِ ونتَّقي بغـارتنـا كيـدَ العِـدَا وضُيُـومَهـا

(٢) لَوْعَة : حرقة في القلب وألم يجده الإنسان من حب أو هم أو حزن أو نحو ذلك .

ذا العِلْـمُ حـلَّ بِقَلْـبِ الفتـى أحـلَّ بـه خَشْيـةَ المتَّقيـنْ
ـيـزدادُ خـوفـاً مـنَ اللهِ حتَّـى يـردَّ الأمـانَ إلـى الخـائِفِيْـن

* * *

ـو العلـمُ لنـا فيـه كيميـاءٌ إلـى قـدرةِ الله يَهْـدي البَصَـرْ
ـيـا أسفـا لَيْـسَ لِلْغَـرْبِ منـه سـوى حيـرةٍ فـي ديـاجـي الفِكَـرْ

* * *

لَـم يُجِبْـه العلـمُ عقـلاً سَـويـاً يُفَـرِّقُ مـا بَيْـنَ خَيْـرٍ وَشَـرّ
ـلا ينبـع الطـلُّ مـنْ جَفْنِـه وفـي صَـدْرِه قطعـةٌ مـنْ حَجَـرْ

* * *

بـالعلـمِ كـانَ رقـيُّ الحيـاةِ تضـيءُ القـرونُ بـه والعَصـر
حَـوَّلَـهُ الغـربُ سيفـاً رهيبـاً لِمَحْـوِ البـوادِي وَقَتْـلِ الحَضَـرْ

* * *

صيـرُ الملائـكُ لـوْ جَـاوَرَتْهُـم معـاولَ[1] هَـدْمٍ لِمَحْـوِ البَشَـرْ
ـلـو كـانـتِ الأرضُ جنَّـة عَـدْنٍ لِسُكَّـانهـا جَعَلُـوهـا سَقَـرْ

* * *

ـدا مظهـرُ العِلْـمِ فـي عَصْـرِهِـم بكـلِّ الشُّعـوب خِـدَاعـاً وَسِحْـرَا
ـعـاذَ الحقيقـةِ ، مـا ذاكَ سِحْـرٌ لقـد بـدَّلـوا نعمـةَ اللهِ كُفْـرَا

* * *

هُـمْ فِتَـنٌ تَجْعـلُ الـوَرْدَ شَـوْكـاً وتُـوقِـد فـي رَوْضـةِ الأمـنِ جَمْـرا

---

١) المَعاول جمع المِعْوَل : آلة من الحديد يُنقر بها الصخر ، ويُهدَم بها البيوت .

خُذِ السَّيف من عُصبة المعتدين إذا كُنْتَ تَنْشُدُ للحقِّ نَصْرَا

* * *

لَقَدْ آنَ للرُّوح أن تَسْتَفيقَ وَلِلشَّرْقِ أنْ يستبينَ الدَّليلا
لِيَجْعَلَ أنقاشَ هذا البناءِ على الظَّالمين كثيباً مَهِيْلا

* * *

إذا العَقْلُ أذْعَنَ لِلْقَلْبِ حكماً رأى طاعةَ اللهِ أهْدَى سَبيلا
وإنْ لمْ يُجِبْ داعيَ القلبِ أضحىٰ كإبليسَ مكراً وشرّاً وَبِيْلا[1]

* * *

يَرَى الغَرْبَ يستغلُّ البرايا[2] كما يَشْتَهي دُوْنَ قيلٍ وقال
يرى الآدميين مِثْلَ القطيع فَهُمْ لفمِ الذئبِ رزقٌ حَلال

* * *

لَقَدْ حانَ تغيير دُنيا بها نرى العَدْل أمراً بَعِيْدَ المَنَال
وسُرَّاقِ أكفانِ موتى القبور على يَدِهِم أيُّ خيرٍ يُنَال

* * *

ضَوارِي السِّباعِ التَقَتْ في جنيف[3] لِطَمْسِ الهُدى والتِهَام العِبَاد
قد اقتسموا كُرَةَ الأرض نهباً[4] وهم نَحْوَ تقسيمِها في اتِّحاد

* * *

---

(١) وبيلاً : شديداً .
(٢) بَرايا : جمع البرية ، وهي الأرض .
(٣) جنيف (Geneva) : مدينة في سويسرا .
(٤) نهباً : غصباً .

يقولونَ هذي بلادي لَكُمْ ونحنُ لنا كلُّ تلك البلاد
هنا ثورةٌ وهنا فتنةٌ بهم نارُها أبداً في ازدياد

* * *

لكَ الأرضُ أم هذه أرضُه وأيُّكم في حِمَاها نزيل
بنفسك كن واثقاً مؤمناً وعِشْ كافراً بالعدوِّ الدَّخيل

* * *

فَمِنْك إليك العُلا والهَوان وَمَجْدُك في الشَّرْق عالٍ أصيل
كرامةُ أجياله في يديك فأنْتَ له أو عَلَيْه الدَّليل

* * *

على قوة الحقِّ تحيا الشُّعوب وتجتازُ في المَجْدِ حدَّ المجال
فلا شعبَ يقوى بلا وَحْدةٍ تضُمُّ الصُّفوف لنيلِ المَعَالي

* * *

ومهما سَمَا الرأيُ إنْ لم يَقُمْ على قوةٍ فَهْوَ زيفُ الخَيَالْ
وفي قوةٍ دونَ رأيٍ جُنونٌ وجَهْلٌ وطيشٌ وعُقْبَى وَبَالْ

* * *

بنا لَبِسَ العِشْقُ ثوبَ الدَّلال وفاضَ على الكونِ طيباً وَحُسْنا
وفطرةُ آدمَ في كلِّ حيٍّ رَوَتْها الخلائقُ في الدَّهْرِ عنَّا

* * *

تَعَلَّمَتِ الأُمُمُ النَّاهضاتُ منَ الشَّرْقِ دِيناً وعِلْماً وَفَنَّا
رفعنا الحِجَابَ عنِ الكائناتِ فَنَحْنُ من الشَّمْسِ والشَّمْسُ منَّا

* * *

إذا لاحَ في صَدَفٍ جَوْهَرٌ فَذَلِكَ مِنْ قَطْرِ نَيْسَانِنَا
وإنَّ هَدْرَ المَوْجِ في بحره فَذَلِكَ مِنْ فَيْضِ طُوْفَانِنَا

* * *

حرارةُ شَدْوِ الهَزَارِ الطَّروبِ على غُصْنِهِ بَعْض نِيرانِنَا
سَقَيْنَا دَمَ آدمَ قلبَ الوُرُود فأهدىٰ رسالةَ إيمَانِنَا

* * *

فتى الشَّرْقِ أنْتَ الوَفيُّ الأمينُ فأظْهِرْ يَدَ العَزْمِ للنَّاس جَهْرا
لِتَخْرُجْ بيضاءَ مِنْ غَيْرِ سوءٍ وتُبْطِلْ مِنْ فِتْنَةِ الغَرْبِ سِحْرَا

* * *

علامَ ارْتَبَطْتَ بِزُنَّارِه وَكَيْفَ اسْتَطَعْتَ على القَيْدِ صَبْرا
فَوَحِّدْ بلادَكَ صوبَ العُلا بإيمانِها تَلْقَ عِزّاً ونَصْرَا

* * *

لَقَدَ نَشَرَ الغَرْبُ أسواقَهُ ومِنْ حَوْلِهِ الجُنْدُ أقوىٰ سِيَاج
وَسِلْعَتُه شَرَكٌ للشَّراء ومَتْجَرُه ظِلُّ عَرْشٍ وَتَاج

* * *

له في التِّجارة رِبْحٌ ونَفْعٌ وبالحُكْم يأتيهِ كَنْزُ الخَراج
ويلقاكَ بالكلماتِ العِذابِ وفي قَلْبِه الحِقْدُ خَلْفَ الرِّتَاج

* * *

فَكُنْ في متاجره زاهداً ففيها الخَسَارَةُ والمَغْرَمُ
نسيجُ بلادِك أقوى خيوطاً وَقُطْنُكَ مِنْ خَزِّه[1] أنْعَمُ

---

(١) خَزّ : نوع من الثياب ينسج من صوف .

جهـــازُ المنـــايـــا بـــدُولابِـــه يَـــدُورُ وأنْـــتَ بـــه أعْلَـــمُ
يميتـك بـالغـشِّ مـنْ غَيْـرِ حَـرْبٍ وأنْـتَ لـه الـرِّبْـحُ والمَغْنَـمُ

* * *

إذا جـاء يَعْـرِضُ نَقْـشَ البِسَـاطِ فَـدَعْـهُ وَعِـشْ راضيـاً بـالحَصِيْـرِ
وإنْ وَصَلَتْـــكَ بِـــهِ رُقْعَـــةٌ فـلا تُعْطِـه بَيْـدَقـاً[1] بـالـوَزيـرِ

* * *

جـــواهـــرُه بَهْـــرجٌ[2] زائـــفٌ لِجَمْـــعِ النُّقـــود وَبَيْـــعِ الضَّمِيـــرْ
ونـافِجَـةُ[3] المِسْـكِ فـي سُـوقِـهِ مِـنَ الكَلْـبِ لا مـنْ غَـزَالٍ غَـرِيـرْ

* * *

تَنَبَّـــهْ لهـــذا الـــدَّخيـــلِ الَّـــذي تَفِـــرُّ الثَّعـــالـــبُ مـــنْ مَكْـــرِهِ
ولا تَتَعمَّـــــم بِمَنْسُـــــوجِـــــه ولا تُغْمِـضِ العَيْـنَ عَـنْ غَـدْرِهِ

* * *

وإمَّـــا مَـــرَرْتَ علـــى حـــانـــةٍ تَعَـــوَّذْ بِـــرَبِّـــكَ مِـــنْ شَـــرِّه
فَمَـــنْ ذاقَ خَمْـــرَتَـــه لَـــمْ يَعُـــدْ إلـــى دارِه بَـــلْ إلـــى قَبْـــرِه

* * *

بـــأصبـــاغِـــه وبـــألـــوانِـــه تَضِـــلُّ البَصِيْـــرةُ قَبْـــلَ البَصَـــرْ
بِسِلْعَتِـــه قـــد غَـــدَوْنـــا سُكـــارى وصـــاحبُهـــا بـــالغنـــى قَـــدْ سَكِـــرْ

* * *

---

(١) البَيْدَق : الدليل في السفر ، والجندي الراجل . ومنه : بيدق الشطرنج .
(٢) البَهْرجُ : الباطل .
(٣) النَّافجة : وعاء المسك في جسم الظبي .

فَمِنْ جَهْدِ كَسْبِكَ ما يَجْتَنِيْهِ ... وما يَقْتَنِيْهِ وما يَدَّخِرْ
ومِنْكَ الغِذَاءُ معاً والكِسَاءُ ... له في نعيمٍ وعَيْشٍ نَضِرْ

***

وإنَّ ذوي الفَضْلِ في كلِّ شَعْبٍ ... على مَجْدِ أمَّتِهِمْ سَاهِرُون
فَهُمْ بسواعدهم يعملون ... وهُمْ في مَوَاطِنهم يَزْرَعُون

***

ومن أرضهم كلُّ ما يُنْتجُون ... وما يَأكُلون وما يَلْبسَون
فيا مَنْ غدا مُنْكراً ذاتَه ... إلى أين يَمْضي بِكَ المَاكِرون

***

وكمْ بِعْتَ مَحْصُولَ زرعٍ له ... رَخيصاً وأنت غداً مُشْتَريه
يعودُ بأضْعافِ ما نِلْتَهُ ... بربحٍ سَخيٍّ لِمُسْتَوْرِدِه

***

كأنَّك لمْ تَشْقَ مِنْ أجله ... ولا كُنْتَ في الأرض مِنْ زَارِعِيْه
أفي البَحْرِ لؤلؤه ... كامنٌ ومِنْ يد غوَّاصِه يَشْتَرِيه

***

شكوى ومُنَاجاة

كان محمد إقبال كثيرَ الاعتداد بالإيمان ، شديدَ الاعتماد عليه ، يعتقد أنه هو قوتُه وميزتُه ، وذخرُه وثروتُه ، وأنَّ أعظم مقدار من العلم والعقل ، وأكبر كمية من المعلومات والمحفوظات ، لا تساوي هذا الإيمان البسيط ، يقول في بيت :

« إن الفقير المتمرد على المجتمع ـ يشير إلى نفسه ـ لا يملك إلا كلمتين صغيرتين ، قد تغلغلتا في أحشائه ، وملكتا عليه فكره وعقيدته ، هما : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » ، وهنالك علماء وفقهاء ، الواحد منهم يملك ثروةً ضخمةً من كلمات اللغة الحجازية ، ولكنه قارون لا ينتفع بكنوزه » .

وكان شديد الغيرة على اعتزائه إلى هذه الرسالة وإلى هذه الشخصية العظيمة ، فكان يأبى أن يتطفل على مائدةٍ أجنبية ، أو أن يروي غُلَّته من معينٍ غريبٍ يقول : **« رفقاً يا رسول الله بفقيرٍ غيورٍ أبيِّ النفس ، رفض أن يملأ كوبه من نهر الأجانب » .**

وجاشت نفسه الكبيرة الدافقة بالحنان والإيمان في الثالث من أبريل سنة ١٩٣٦م وهو عليل رهين الفراش في بهوبال[١] (الهند) ، وقد آلمه ما كان يراه من وضع العالم الإسلامي المخزي ، والفراغ الفكري والروحي الهائل الواقع فيه ، وضعف الشخصية الإسلامية الشائن ، واندفاع الجيل الجديد المتهور إلى الفكرة الغربية ومُثُلِها وقِيَمها ، وتخليه عن رسالته ومركزه ، ففاضت قريحته بشعرٍ من أبلغ الشعر الوجداني ، تحدث فيه إلى النبي ﷺ ، وشكا إليه في عالم الخيال ضعف العالم الإسلامي وفقره الروحي وانحرافه عن الجادة ، وما كان يجده في نفسه من فتورٍ بعد النشاط ، ومن ضعف في العلم ، يقول :

« أشكو إليك يا رسول الله ! هذه الأمة التي تسلط عليها خوفُ الموت ، إنك حطَّمت الأصنامَ القديمةَ كاللاتِ ومناة ، وجدَّدت العالم القديم ، الذي سرى فيه الهرم ، ودبَّ فيه الموت ، فأصبح العالم يستقبل اليوم الجديد بالإيمان ، ودبَّ فيه الموت ، فأصبح العالم يستقبل اليوم الجديد بالإيمان والحنان ، والتسبيح والأذان ، ويستمدُّ من الشهادة التي لقنته إيَّاها الانتباه والحضور ، والنور والسرور .

---

(١) اسم مدينة تقع في ولاية « مدهيابرديش » وهي عاصمتها كذلك .

إننا ـ وإن ولدنا في بلادٍ عريقةٍ في الوثنية ـ رفضنا أن نعبد الثور والبقر ، وأبينا أن نطأطىء رؤوسنا أمام الكهَّان والسَّدنة ، فلم نخرَّ بين يدي الآلهة القديمة ، ولم نَطُفْ حول بلاط الملوك وقصور الأمراء . والفضل في كل ذلك يرجع إلى دينك الذي جئت به ، وإلى جهادك الذي قمت به ، فقد تربينا على السُّفرة التي بسطتها للعالم ، وقد ظلَّ حديثُك مصدر الشوق والسرور للأمة طيلة هذه القرون ، وقد استطاعت بذلك أن تكون أبيَّةً في الفقر ، عفيفةً في الحاجة ، ولكنَّ العالم الإسلامي اليوم قد فقد الشيء الكثير من قوته وقيمته .

لقد تجوَّلتُ في ربوع العالم الإسلامي ، وزرتُ بلاد العرب وديار العجم ، فرأيتُ من يقتدي بك ، ويجدد ذكراك مفقوداً لا يقع عليه العيان ، ورأيت من يمثِّل أبا لهب ويحكيه كثيراً يوجد في كل مكان . إنَّ الشباب الإسلاميَّ قد استنارت عقولهم ، وأظلمت قلوبُهم وضمائرُهم ، إنَّهم في شبابهم ناعمون رقاقٌ كالحرير ، لا يحتملون الأمل الجديد ، والنظر البعيد ، إنهم نشؤوا على العبودية ، ودرج على ذلك جيلٌ بعد جيل ، حتى أصبحوا لا يحلمون بالحرية ولا يطيقونها .

إنَّ نظام التعليم الجديد ومؤسساته انتزعت منهم النَّزعة الدِّينية حتى أصبحوا خبر كان ، إنهم هاموا بالغرب ، وجهلوا قيمتهم ، يريدون أن يتصدق عليهم الغرب بكسرة خبز ، أو حفنة شعير ، إنهم باعوا نفوسهم الكريمة من أجل لقمةٍ حقيرة ، فأصبحت الصُّقور التي تحلق في السماء عصافيرَ صغيرةً لا شأن لها بالأجواء الفسيحة والمرامي البعيدة .

إنَّ أساتذة هذا الجيل الذين بضاعتهم في العلم مُزجاةٌ لم يخبروه بمركزه ومنصبه ، إنَّ نار الغرب قد أذابت هذا الجيل كالشمعة ، وصاغته صوغاً جديداً ، فأصبح في هذا الجحيم ممسوخاً منكوساً ، وأصبح المسلمُ لا يعرف سرَّ الموت ولذته ، ولا يؤمن كما كان يؤمن في القديم بأنه « لا غالب إلا الله » ، لقد مات قلبُه بين جوانحه ، فأصبح لا يفكِّر إلا في المنام والطعام ، إنه حكَّم الغرب في

نفسه ليتلقى منه رغيفاً ، وقبل منَّة مئةِ إنسانٍ من أجل بطنٍ واحد ، إنَّ محطِّم الأصنام ، وسليل إبراهيم قد أصبح « آزر » ينحت الأصنام ، إنَّه يشتري من الإفرنج أصنامهم الجديدة .

إنَّ هذا الجيل قد أصبح في حاجةٍ إلى بعثٍ جديد ، وإلى أن نقولَ له مرَّةً ثانية : قم بإذن الله ، لقد سحرتنا الحضارة الغربية ، وقد استطاع الغربيون أن يقتلونا من غير حرب وضرب ، لقد استطاعت أمتك وأصحابك ، أن يَثْلُوا عروش كسرى وقيصر ، والعالم ينتظر من جديد ثائراً جديداً ، يؤمن بالله ويكفر بغيره ، ويكسر طلاسمَ هذه الحضارة ويبطل سحرها .

نفسي فداؤك أيها الفارس الكريم ! بالله اقبض العِنان ، وقفْ بي لحظةً أبث إليك بالأشجان والأحزان ، قد تلجلج لساني وخانني البيان ، إنَّني في صراعٍ بين سلطان الشوق وسلطان الأدب ، إنَّ الشوق يقول لي : تَشَجَّعْ وتكلَّم ، فأنت من الحبيب بقاب قوسين ، الأدب يقول : إيَّاك والفضول ، فافتح العينين وأطبق الشفتين ، ولكنَّ الشَّوْقَ عصيٌّ ثائر ، لا يخضع للأدب ، إنني أطلب منك نظرة التفات ، فأنا ذلك الغزال التائه اللاغب الذي زَهِدَ فيه الطالبون ، وانصرف عنه الصيادون ، فلجأت إلى حرمك ، ولأمر ما ترامیت في أحضانك ، إنَّ صوتي قد اختنق في حلقومي ، وإنَّ اللهيب عاد لا يتجاوز صدري ، وإن أنفاسي قد تجرَّدت من لوعة القلب ولهيب الصدور ، وإنني فقدت اللذة التي كنت أجدها في قرآن الفجر .

إنَّ الزفير الذي لا يسعه الضمير كيف يستقر في الصدر كالعاني الأسير ؟ إنه يحتاج إلى أجواء لا نهاية لها ، وإلى سعة السموات التي لا حدود لها ، يا لها من عللٍ يعانيها جسدي وروحي ، ولا دواء لها ، إلا أن تنظر إليَّ من طرف خفي ، إن هذه الأدوية التي يصفها الأطباء لا تناسب روحي العليلة ، فإن شامتي اللطيفة لا تحتمل مرارتها ورائحتها ، فأنا مريض لا يرجع فيه إلى طبيب ، فأبكي بكاء الأطفال ، إذا جرعوا الدواء المر ، وأنا أخادع نفسي ، فأمزجه بالحلاوة حتى

تسهل إساغته ، إنني كالبوصيري أطلب الفتح والفرج ، وأن يعود إليَّ ذلك اليوم الذي فقدتُه ، إنَّ العصاة من أمتك أسعد بشفاعتك ، وأكثر حظاً من عطفك من غيرهم ، كالأمِّ الحنون الرؤوم في عطفها وصفحها عن إساءة أبنائها .

إنَّني مع عباد الليل والظلام في صراعٍ شديد ، فمد سراجي بمدود من الزيت من جديد ، إنَّ وجودك كان للعالم ربيعاً ، وللإنسانية خصباً وريعاً ، فلا تضنَّ عليَّ بشعاعٍ من أشعة شمسك المنيرة للعالم ، إنَّ قيمة الجسم بالروح ، وإنَّ قيمة الروح هو إشراقٌ من المحبوب ، إنني أريد أن ينقطع رجائي عن غير الله فاجعلني سيفاً ، أو اجعلني مفتاحاً .

لقد أسرع بي ذهني الوقاد في مجال الفقه وحكمة الدين ، ولكن أبطأ بي عملي في مجال الكفاح ، إنَّ مهمتي أصعبُ وأدقُّ من مهمة « فرهاد » الذي كلف تفجير نهر من لبن من جبل صلد أصم ، فأنا في حاجة إلى آلات أَحَدّ ، وقوى أَشَدّ ، حتى أتم مهمَّتي ، وأحقِّق رغبتي ، إنني مؤمنٌ لا أكفر بشخصيتي ومواهبي فضعني على المِسَنِّ ، فإنني حديدٌ منْ مَعْدِنٍ كريم .

إنني وإن كنت قد ضيَّعتُ شبابي ، وأتلفتُ حياتي ، ولكن أملك شيئاً اسمه « القلب » ، إنني أغار عليه وأستره من العيون لأنه يحمل أثراً من حافرِ جوادكَ الأصيل ، إنَّ العبد الذي قد زهد في زخارف الدُّنيا ، إنما يتسلَّى برضا سيده وعطفه ، ويعتبر حياة الهجر والفراق موتاً .

يا من منح الكرديَّ لوعة العرب ، اسمحْ للهنديِّ أن يَمْثُلَ بين يديك ، ويتحدَّث بأشواقه وأحزانه إليك ، إنه يحمل قلباً حزيناً ، وكبداً مقروحة ، لا يعلم أصدقاؤه وزملاءه ما يعانيه من حزنٍ وألم ، إنه لا تنقطع ألحانه المشجية ، كالعود الذي لا راحة له ولا انقطاع ، إنني كحطبٍ في الصحراء مرَّ به ركبٌ فأشعل فيه النار ، وأعجلَ الركبُ السَّير ، فمضى وخلَّفه ، وبقيَ الحطب يشتعل ، وينتظر ركباً جديداً ليستهلكه ويأتي على بقيته ، فمتى يمرُّ به ركْبٌ

جديد في هذه الصحراء الموحشة المظلمة[1] ؟ .

* * *

وإليك هذه القصيدة المصاغة بالعربية شعراً يقول إقبال :

يـا رأسَ مـالِ البـائسيـنَ ويـا مَنَـارَ انحـائـريـن
ادعُ الإلَـهَ يَهَـبْ لأمَّتِـك : الشَّجـاعـةَ واليقيـن

* * *

ويعيذُهم منْ شرِّ خوفِ المَوْتِ منْ قَبْلِ المَمَاتِ
الخوفُ يفني اليائسينَ وهمْ على قيدِ الحياةِ

* * *

يا منْ هَدَمْتَ اللاَّتَ والعُزَّى وحرَّرت الحَرَمْ
وبنيـتَ أعلـى أمـةٍ تَهْـدي بِسِيْـرَتهـا الأُمَـمْ

* * *

ذكـرُ الإلَـه ويَقْظـةُ الـوجْـدان فـي إنـسٍ وجـان
منْ فَيْضِ وحيكِ يا صلاةَ الصُّبحِ يا صَوْتَ الأذان

* * *

فحرارةُ الإيمان في القَلْبِ المَشُوْقِ إلى النِّضال
وسراجُ ليلِ الفِكْرِ (لا معبودَ إلا ذو الجَلالِ)

* * *

لَمْ نَتَّخذْ في الكونِ ربّاً من رُخَامٍ أو حَجَرْ

---

(١) من « روائع إقبال » للعلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي ، ص٢٠١ ـ ٢٠٦ .

كـلا ولـم تَسْجُـد لنجـمٍ أو نبـاتٍ أو بقـر

* * *

لـم نلـق جبهتنـا لـدى الكُهَّـان فـي ذُلٍّ حقيـر
لـم نحـنِ هـامتنـا لسلطـانٍ قـويٍّ أو أميـر

* * *

منْ فيضِ روحِكَ كلُّ هذا الفَضْلِ والعزِّ المكين
وبناءِ صَرْحِ المَجْدِ في توحيد ربِّ العالمين

* * *

ذكـراكَ وردٌ سـائغٌ يحلـو بـه العيـشُ المَـرير
وبِغَيْـرةِ الإيمـان صـار الـدِّيـنُ كنـزاً للفقيـر

* * *

يا منتهى كلِّ المنازلِ في طريق السَّالكين
يـا مَـنْ إلـى أنـوارِه تهفـو قلـوبُ العـاشقيـن

* * *

قِيْثَارتي[1] ثَقُلَتْ وأعْيَاها التَّجاوبُ والرَّنين
أوتـارهـا لا تستجيـبُ إذا عَـزَفْـتُ ولا تبيـن

* * *

فـإذا نصحـتُ فـإنَّني نـاديـتُ مـنْ لا يسمعـون
وإذا نَهَيْـتُ فـإنَّمـا أسْمَعـتُ مـن لا يَنْتَهـون

* * *

---

(١) القِيثارة : آلة طرب ذات أوتار .

طوَّفْتُ في أرض الأعاجم ثمَّ في أرض العرب
لم ألق فيها المصطفى ولكمْ رأيتُ أبا لهب

***

عجبي لهذا المسلمِ المزهوِّ بالعصر المنير
لا همَّةٌ تحدو خُطاه ولا سِرَاجٌ في الضَّمير

***

وأرى شباباً واهن العزماتِ في لينِ الحرير
وُلدَتْ أمانيه فكانَ المهدُ مصرعَها الأخير

***

ذاكَ الغُلامُ بنُ الغَلامِ بنِ الغُلامِ بنِ الغُلامِ
في شَرْعِه تحريرُ أمَّتِه محالٌ أو حَرام

***

الدِّينُ ليس له بِدُنْياه زمانٌ أو مكان
كلُّ الذي أدْريه عنه أنَّه بالأمسِ كان

***

عن ذاتِه أضحى غريباً مُستهاماً بالدَّخيل
بذلُ الكرامةِ عنده ثمناً لِمَطْعَمِهِ الذَّليل

***

كالطَّير غايته التقاط الحبِّ في ظلِّ القُصور
هو طائرٌ لكنَّه لم يَدْرِ تحليقَ النُّسور

***

قَدْ ذابَ في نارِ الفِرنْجِ فما له عنها مَحِيْد[1]
وأتَتْه نارُ جهنمَ لكن بأسلوبٍ جَدِيْد

* * *

هو مؤمنٌ لكنَّه من جنَّة الشُّهداءِ هارِبْ
ليستقرَّ بقلبه أنْ (ليس غيرَ الله غالبْ)

* * *

ذاكَ الذي فَقَدَ اليقينَ وقلبُه فَقَدَ الحَيَاه
وطعامُه وشرابُه ومنامُه أغلى مناه

* * *

وتراهُ بالمِنَنِ الثِّقَال مقيَّداً ومُكَبَّلا
مِمّنْ يقولُ : (نعم) وممَّن لا يُجيب بِغَيْرِ (لا)

* * *

فَلْيَصْحُ من غَفَلاتِه ليعودَ حيَّاً قلبُه
ويعيشَ في أوجِ الكرامةِ هاتفاً (اللهُ هو)

* * *

مدنيةُ الإفْرَنْجِ ماضيةٌ بنا نَحْوَ الزَّوال
قَتَلَتْ مواهِبَنا بلا حربٍ تدورُ ولا قِتَال

* * *

فاكْشِفْ لقومِكَ عن كريمِ النَّفْس مُتَّقدَ الحياه
ثِمِلٌ يحبُّ الله لا يَرْجُو ولا يَخْشَى سِواه

---

(١) فماله عنها محيد ، أي : ماله منها مفر .

وإذا تبيَّـن مسلـمٌ فـي ذاتـه شَـرَفَ المَكَـانَـهْ
أخْلِقْ به في الدَّهْرِ أنْ يختارَ في الدُّنيا مَكَانَهْ

***

أيُّهـذا الفـارسُ المِغـوار أمْهِـلْ فـي المسيـر
واحْبسْ عِنَانَك لمحةً تَسْتَقْبِلِ القَمَر المُنير

***

أَملي على شَفَتيَّ مُحْتبسٌ عنِ النُّطْقِ احْتَجَبْ
والشَّوقُ يقتحمُ المَقَامَ فليس يحكمُه الأدب

***

هذا يقولُ أَبِنْ عن الشَّكوى ولا تَكْتُم أسَاكْ
ويقولُ ذاك انظر ولا تَهْمسْ بحرفٍ عَنْ جَوَاكْ

***

أنْتَ الهدايةُ والدَّليلُ وأنتَ عِرْفاني وَفِكْري
وسفينتي في الدِّينِ والدُّنيا وطوفاني وَبَحْري

***

زادت بي الأنَّاتُ والعَبَراتُ حتَّى عِيْل صَبْرِي
فإلى متى هذا اللهيبُ يظلُّ مطوياً بِصَدْري

***

فلَمْ يَبْقَ للأرواحِ في شوقِ العِبَادَةِ منْ أثَرْ
لمْ يَبْقَ لُطْفُ تلاوةِ القُرآن في وَقْتِ السَّحَرْ

***

قَدْ كُنْتِ يا شمسَ الخليقةِ منقذاً في النَّائبات

وأبـرَّ بـالعـاصيـن رفقـاً مـن قلـوب الأمَّهـات

* * *

فـي حَـرْبِ عبَّـادِ الظَّـلام أصـارعُ الـدَّاء العَيَـاءْ
فامنحْ سراجي منك زيتاً قبل ما يخبو الضِّياء

* * *

كلُّ الخمائلِ[1] في رياض الكَوْنِ أنْتَ ربيعُها
مِنْـكَ الفـواضِـلُ كلُّهـا والمَكْـرُمـاتُ جميعُهـا

* * *

الجِسْـمُ فـي بُنيـانـه بـالـرُّوح يَكْتسـبُ الحَيَـاهْ
لكنْ حياةَ الرُّوحِ في قُرْبِ الحبيبِ وفي رِضاهْ

* * *

انْظُرْ إليَّ فأنتَ بالجَدوى وبالإحْسَان أوفى
إنْ لـمْ أكنْ بِهُداك مِفْتاحاً ، أكنْ بحماك سيفا

* * *

لي محنةٌ منْ دُونها قطعُ الصُّخورِ منَ الجِبَالْ
فاجعلْ لفأسي مِنْكَ حدَّاً ماضياً عِنْدَ النِّضالْ

* * *

إنْ كانَ عُمري قد بدا خِلْواً من المَحْصُولِ جَدْبَا
ما زلتُ أملكُ مضغةً[2] يدعونها في الحُبِّ قَلبا

---

(١) الخمائل ، جمع خَمِيلة : كل موضع كثر فيه الشجر .
(٢) المُضْغَة : القطعة التي تمضغ من لحم وغيره ، لكن هنا يريد بها الشاعر « القلب » .

أخفيتُه لأكونَ فرداً في هواكَ وفي رِضَاكْ
وعليه خاتمُ حُبِّك الغالي فَلَيْسَ به سِوَاكْ

* * *

إنَّ الذي لا يبتغي من هذه الدُّنيا متاعا
إنْ لمْ يَنَلْ قُرْبَ الحبيبِ تكونُ دُنياه ضَيَاعا

* * *

كمْ ذا يُعاني القلبُ منْ نارِ اللَّواعجِ والشُّجُون[1]
وَيَئِنُّ مِثْلَ النَّاي بالشَّكوى لِمَنْ لا يَعْلمُون

* * *

قَدْ خَلَّفَتْهُ على رُبى الصَّحْراءِ قافلةُ الرِّفاقْ
كَهَشِيْمِ غُصْنٍ يَصْطلي بالجَمْرِ في نِصْفِ احْتِرَاقْ

* * *

يَرْنُو إلى البَيْداءِ والمُدُنِ الرَّحيبة والفَضَاءْ
فعسى تمرُّ قوافلٌ أخرى تُعِيْدُ له الرَّجاءْ

* * *

يا مَنْ خَلَعْتَ على صلاحِ الدِّين حُلَّةَ خالدِ
فمضى بِعِزٍّ دائمٍ يبقى وَمَجْدٍ خالدِ

* * *

---

(١) الشُّجون : الهموم والأحزان .

جہانِ تازہ کی افکارِ تازہ سے ہے نمود
کہ سنگ و خشت سے ہوتے نہیں جہاں پیدا